الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

بقلم:
حسّان الكاتب

الكتاب الذي نحن في صدد عرضه وتقديمه، ممتع مؤنس كاسمه، يلقي نوراً كاشفاً على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.. أي في العصر البويهي.. وهو عصر سادته الضبابية، فقد تعرض التوحيدي في ثنايا حديثه لكثير من الشؤون الاجتماعية لهذا العصر، فوصف فيه الأمراء والوزراء ، ومجالسهم كابن عباد، وابن العميد، وابن سعدان، ومحاسنهم ومساوئهم، ويصف العلماء، ويحلل شخصياتهم وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التي جرت بين أبي سعيد السيراقي ومتي بن يونس القنائي في المفاضلة بين الأمم، إلى كثير من أمثال ذلك.

وفي الكتاب.. النص الوحيد الذي كشف لنا عن مؤلفي أخوان الصفا، وقد نقله القفطي منه، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها، وعن القفطي نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء.

كما أن في كتاب الإمتاع والمؤانسة الذي نحن بصدد عرضه وتقديمه.. فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة، فهو يصف كثيراً حالة الشعب في عصره وموقعه من الأمراء والملوك، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك.

وإنني أطيل جداً لو وصفت ما في الكتاب من فوائد يقف عليها من يطالع هذا الكتاب القيم الذي يضع في ثلاثة أجزاء، وهو يعتبر أقوم كتب التوحيدي وأنفعها وأمتعها.

ولتأليف أبي حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله بن الفارض قرب أبو الوفاء، أبا حيان من الوزير، ووصله به، ومدحه عنده، حتى يجعل أبا حيان من سماره، فسامره أربعين ليلة يحادثه فيها، ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان.

ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه "أبي حيان" ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته، وسوء عادته، وقلة مرانته، وحقارة لبسته، وهدده أن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع به عقوبة، وينزل الأذى به.

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ونزل على حكمه، وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر فوافق أبو الوفاء على ذلك، ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه واثنانه، والصدق في إيراده وأن يطنب فيما يستوجب الأطناب ويصرح في موضع التصريح، فكان في ذلك كتاب "الإمتاع والمؤانسة" .

ويظن بأن الوزير الذي سامره التوحيدي هو "أبو عبد الله الحسين بن سعدان" وزير صمصام الدولة البويهي.

والحقيقة أن أسلوب الكتاب، بتقسيمه إلى ليالي، وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار يجعله لذيذاً شيقاً أو على حد تعبير مؤلفه - ممتعاً مؤنساً- فهو أشبه شيء بكتاب ألف ليلة وليلة، ولكنها ليست لليالي اللهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء، إذ يتعرض فيه إضافة لما ذكرنا لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة، التي جرى فيها الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما، ومزايا كل ونقصه وهكذا كما تعرض فيه إلى مشاكل الفلاسفة كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك.. وهكذا، فإن كان كتاب ألف ليلة وليلة يصور الحياة الشعبية في ملاهيها وفتنها وعشقها، فكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية، كيف يبحثون، وفيم يفكرون وكلاهما في شكل قصصي مقسم إلى ليال، وإن كان حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة.

وأسلوب أبي حيان في كتابته، أسلوب أدبي راق كعهدنا في كل تآليفه، يحب الازدواج ويطيل في البيان، ويحتذي حذو الجاحظ في الأطناب والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولاً، ولكن أغمض أسلوبه في هذا الكتاب تعرضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزت على البيان ودقت عن الإيضاح، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة إلى موضوعات أدبية: كوصفه لفقره وبؤسه، أو وصفه للكرم وفوائده، أو وصف اللسان والبيان جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع..

ومجموع أحاديث الأسمار هذه هي التي كونت مادة الكتاب، وهذه الأحاديث في

الإطـار الذي عرضت خلاله، لا تخضع لمنهج ولا تـنظمها قـاعدة، وقد أدرك أبو حيان هذا ودافـع عـن نفسه فيه فقال في مفتتح الجزء الثاني:

"انـتهى الجزء الأول وأشفعه بالجزء الـثاني على سياق ما سلف نظمه ونثره غير عائج على ترتيب يحفظ صورة التصنيف على العـادة الجاريـة لأهلـه، وعذري في هذا لأن الحديث كان يجري على عواهنه بحسب السانح الداعي" وكان التوحيدي يختم كل ليلة من ليالي السمر هذه بطرفة يسميها "ملحمة الوداع" وقد جرى على رسمها في الليالي كلها.

وسـنورد فيمـا يل بعض ما جاء من حديـث بيـن التوحيدي وجليسه الوزير حيث يقول:

(وصـلت أيهـا الشـيخ - أطال الله حيـاتك، أول ليـلة إلى مجلس الوزير - أعز الله بنصـره، وشـد بالعصمة والتوفيق أزره، فأمـرني بالجلوس، وبسط لي وجهه الذي ما اعـتراه منذ خلق العبوس، ولطف كلامه الذي ما تبدل منذ كان لا في الهزل ولا في الجد، ولا في الغضب ولا في الرضا.

ثـم قـال بلسانه الذليق (١) ولفظه الأنيق: قد سألت عنك مرات شيخنا أبا الوفاء، فذكـر أنك مراع لأمر البيمارستان من جهته، وأنـا أربا بك عن ذلك، ولعلي أعرضك الشيء أنبه من هذا واحدي ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضـورك لـلمحادثة والتأنيث ولأتعرف، منك أشـياء كثيرة مختلفة تردد في نفسي على مر الزمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، ولكنني أنـثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض، فأجبني عن ذلك كله باسترسال وسكون بال بملء فيك، وجم خاطرك، وحاضر عـلمك، وردع عـنك تفنن البغداديين من عفو لفظـك، وزائـد رأيك وريح ذهنك (أي فضلته) ولا تجـبن جـبن الضـعفاء، ولا تتأطر تأطر الأغـبياء واحزم إذا قلت ، وبالغ إذا وصفت، وأصدق إذا أسندت، وأفضل إذا حكمت، إلاّ إذا عرض لك ما يجوب توقفاً أو تهادياً، وكن على بصيرة أي سأستدل مما أسمعه منك في جوابك عمـا أسـالك عنه على صدقك وخلافه، وعلى تحريضك وقرافه.

فقـلت قبل: كل شيء.. أريد أن أجاب إليـه يكـون ناصري، على ما يرادمني.. فإن منعته نكلت، وإن نكلت قل إفصاحي عما أطالب به وخفت الكساء، وقد طمعت بالنفاق وانقلبت بالخيـبة، وقـد عقدت خنصري على المسألة.

فقـال: حرس الله روحه - قل - عافاك الله - مـا بـدا لك، فأنت مجاب إليه ما دمت ضامناً لبلوغ إرادتنا منك، وإصابة غرضنا بك.

قـلت يـؤذن لي في كاف المخاطبة، وتـاء المواجهـة، حـتى أتخلص من مزاحمة الكتابة ومضايقة التعريض، وأركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا مخاوبة (مواربة) ولا انحياش (انقباض) .

قـال: لـك ذلـك، وأنت المأذون فيه وكذلـك غيـرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهـة؟ إن الله تعـالى - على علو شأنه، وبسطة ملكه، وقدرته على جميع خلقه، يواجه بالـتاء والكـاف، ولو كان في الكتابة بالهاء رفعـة وجلالـة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكـان الله أحـق به بذلك ومقدماً فيه، وكذلك

رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله – عليهم السلام – وأصحابه – رضي الله عنهم– والتابعون لهم بإحسان – رحمة الله عليهم – وهكذا الخلفاء، فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزك الله ويا عمر أصلحك الله، وما عاب هذا أحد، وما أنف منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبير ولا شريف، وإني لأعجب من قوم يرغبون هذا وشبهه، ويحسبون أن في ذلك ضعة أو نقيصة أو خطأ أو زراية.

وأظن أن ذلك يعجزهم وفسولتهم (أي خستهم وضعفهم) وانخرالهم (أي انقطاعهم وتخلفهم عن طلب المعالي) وقلتهم وضؤولتهم، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم، وإن هذا التكلف والتجبر يمحوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص ينتفي بهذا الصلف؟ هيهات، لا تكون الرساسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء، ومن مقابح الزهو والكبرياء.

فقلت: أيها الوزير، قد خالطت العلماء وخدمت الكبراء وتصفحت أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وخلاقهم، فما سمعت هذا المعنى من أحد على هذه السياقة الحسنة والحجة الشافية والبلاغ المبين. (وجرى الحديث بين التوحيدي والوزير) إلى أن قال التوحيدي: وأحسن من هنا ما قال عمر بن عبد العزيز قال: والله إني لأشتري (المحادثة) من عبد الله (٢) بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود بألف دينار – من بيت مال المسلمين، فقيل: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تحريك وشدة وتحفظ وتنزهك. فقال: أين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف دنانير، إن في المحادثة تلقيحاً للعقول: وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمم، وتنقيحاً للأدب..

قال الوزير صدق هذا الإمام في هذا الوصف، إن فيه هذا كله.. وجرى الحديث بين أبي حيان التوحيدي والوزير في الليلة الأولى على هذا النسق إلى أن قال الوزير:

أحسنت في هذه الروايات على هذه التوشيحات وأعجبني ترحمك على شيخك أبي سعيد، فما كل أحد يسمح بهذا في مثل هذا المقام وما كل أحد يأبه لهذا الفعل، هات ملحة الوداع حتى نفترق عنها ثم نأخذ ليلة أخرى.

قلت: حدثنا أبن سيف الكاتب الراوية، قال: رأيت جحظة (٣) قد دعا بناء ليبني له فحضر، فلما أمس اقتضى بالأجرة، متماسكاً (أي تشاحا بالأجرة) وذلك أن الرجل طلب عشرين درهماً، فقال جحظة: إنما عملت يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهماً؟ قال: أنت لا تدري أني قد بنيت لك حائطاً يبقى مائة سنة، فبينما هما كذلك، وجب الحائط وسقط، فقال جحظة: هذا عملك الحسن؟ قال فأردت أن يبقى ألف سنة، قال: لا ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك، فضحك – أضحك الله سنه .

وفي الليلة السابعة عشر (كان الحديث عن أخوان الصفا وهو النص الوحيد الذي كشف لنا عن مؤلفي أخوان الصفاء والذي نقله القطفي منه وسبق أن تحدثنا عن ذلك في مطلع حديثنا عن كتاب الإمتاع والمؤانسة) .

قال الوزير : حدثني عن شيء هو أم من هذا لي وأخطر على بالي، إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً ومذهباً عهد لي

(بـه) وكتابة عما لا أحقه، وإشارة على ما لا يتوضح شيء منه، يذكر الحروف ويذكر النقط.. الخ..

فقلت أيها الوزير، هو الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً بالتربية والاختبار، والاستخدام وله منك الأخوة القديمة والنسبة المعروفة.

قال دع هذا وصفه لي، قلت هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة ومتع في فنون النظم والنثر مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصر في الأراء والديانات، وتصرف في كل فن: أما بالشدو الموهم، وأما بالتبصر المفهم، وأما بالتناهي المفحم، فقال فعلى هذا ما مذهبه؟

قلت ينسب على شيء، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكل شيء، وغليانه في كل باب، ولاختلاف ما يبدو من بسطة وتبيانه، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد ابن قعشر البشيتي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به (الطريق) إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة: علميها وعلمتها وأفردوا لها فروسنا وسموها رسائل أخوان الصفا وخلان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ولقنوها للناس، وادعوا أنهم ما فعلوا ذلك، إلاّ ابتغاء وجه الله عز وجل وطلب رضوانه ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها، وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة.

فقال: هل رأيت هذه الرسائل؟ قلت رأيت جملة منها، وهي مبثوثة من كل فن نتفا بلا أشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات، وتلزيقات، وقد عرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عنها.

وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطيقي السجستاني (محمد بن بهرام) وعرضتها عليه - ونظر فيها أياماً واختبرها طويلاً، ثم ردها علي وقال: تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفوا، ظنوا ما لا يكون لا يمكن ولا يستطاع، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة، التي هي علم النجوم والأفلاك والمحسطي والمقادير وآثار الطبيعة، والموسيقى والتي

هــي معــرفة الــنغم والإيقاعــات والــنقرات والأوزان، والمــنطق الــذي هو اعتبار الأقوال بالإضــافات والكميات والكيفيات، في الشريعة وأن يضموا الشريعة للفلسفة.

وفي نهاية المطاف مع كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يحسن بنا أن نقدم ومضة من حياة مؤلفه التوحيدي .

مع أبي حيان التوحيدي:

ولــد الأديب علي بن محمد (أبو حيان الــتوحيدي) في شيرا أو نيسابور أو واسط.. فالمصــادر لــم تحــدد بالضبط مكان وتاريخ ولادتــه.. أقام ببغداد وانتقل إلى الري، ثم عاد إلى بغداد، فاتهم بالزندقة عند الوزير المهلبي، فطلبه فاستتر، ومات بعد عام ١٠١٠، مختفياً، عــن أكــثر من ثمانين سنة، كان حاد المزاج، سريع الجواب، فلم يحبه الكبراء، واضطر على احــتراف نسخ الكتب، وفي آخر حياته أحرق كتبه، ضنا بها على الناس، درس النحو واللغة والفلســفة والأحكــام والازدواج، فخالف أدباء عصــره المهتمين باللفظ والسجع، وألف عدة كتب هامة ، مثل "مثالب الوزيرين" "في ذم ابن العميــد والصــاحب ابن عياد" و "البصائر" و "الإشــارات الإلهية" و "الرد على ابن جني في شعر المتنبي" و "تقريظ الجاحظ" .

وبعــد فالتوحيدي أديب ومفكر واسع الــثقافة، عميــق التفكير، ملم بألوان التيارات الفكرية التي شهدها عصره ، هو القرن الرابع الهجــري الــذي يمثل قمة ذهبية في تاريخنا الفكــري والحضاري، والأحاديث التي تضمنها كــتابه تمــثل موسوعة فكرية وأدبية عكست ثقافــة التوحيدي - وتيارات العصر الذي كان يعيــش بين ظهرانية وتجلت فيها ثقافة العرب والفــرس والــروم واليونــان والهنود وأخبار رجــال ذلك القرن من أدباء وشعراء ولغويين ونحــاة وفلاســفة ومتكلمين ونبذا من آرائهم واتجاهــاتهم وقد اشتمل الكتاب على طائفة من الشــواهد الشعرية والنثرية كما سبق وذكرنا، وقــد اســتطاع التوحيدي أن يضفي على هذه المجموعــات المتفاوتة من القضايا المطروحة المســحة الحيوية بسبب روعة الطابع العقلي وسحر الأداء الأسلوبي .

ويــبدو أبــو حيان في كتابه متواضعاً يعــرض آراءه ببساطة دون اعتداد في الوقت الــذي يــتحمس فيــه لأراء اساتذته وشيوخه ويثني عليها ويحيطها، بهالة من التقدير.

---

(١) اللسان الذليق: الجاد البليغ.

(٢) هو أحد الفقهاء السبعة، كان إماماً عالماً وكان أعمى، قال البخاري أنه مات سنة ٩٤ هــ وهذا لا يتفق وخلافة عمر بن عــبد العزيز وقال ابن المديني سنة ٩٩ هــ وهذا متفق مع هذه القصة.

(٣) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بــن يحيى بن برمك الشاعر المعروف، كــان مــن ظرفاء عصره وكان صاحب فــنون نــوادر ولد سنة أربع وعشرين ومائــتين من الهجرة، وتوفي سنة ست وعشــرين وثلاثمائــة وقيــل سنة أربع وعشــرين وثلاثمائــة بواســط، ودفــن ببغداد.

فتى العرب

عبد الحميد علي (بدوي الساحل)

(مهداة إلى العربي الكبير الشاعر السيد العماد أول الدكتور مصطفى طلاس)

تبلج وجهُك الضاحي ولاحا
فرهره في ملامِحه الصَّباحا
وأسكر زهو نيسان وندىً
مشارفَه اغتباقاً واصطباحا
ونم العطرُ هسهسةً وبشراً
عن الشمس المخبَّأةِ اتضاحا
ولمَّا أن طلعتَ (أبا فراسٍ)
على الدنيا عشقناها مِراحا
وأترفنا العيونَ على روآها
وزيَّنا النفوسَ لها انفتاحا
وآمالُ الحياةِ إليك أمَّت
لتنعمَ في محياك انشراحا
لقد شامت بطلعته وميضاً
يذيع لها المنى روحاً وراحا
فتى العرب الكرام ومن تساموا
ومَن ملكوا العلى سناحاً فساحا
ومن سطعوا على الدنيا بدوراً
كِراماً تسكب البشرى صِباحا
فقد زحموا الضحى ألقاً وراضوا
عنان الدهرِ والدنيا نِفاحا

لكم قِدَمُ الأصالةِ عن يقينٍ

وغيركمُ تصباها سفاحا

لقد طُبِعَتْ بكم شيماً وراحت

تماجد ميعةَ الشمس امتداحا

نما برحابها الإسلام زهواً

فعاطاها الكرامةِ والسَّماحا

فشأو المجد في الحلبات وعد

وما حاز الرهانَ فتى مِزاحا

(وبأبن الأكرمين) بك أطمئنت

لغايةِ مجدها الفصحى طِماحا

شبابك ديمةٌ مرَّت عطوراً

على الصحراء فاشتعلت أقاحا

وإن جُنَّ الهجير على وسيمٍ

تحامى في ظلالك واستراحا

مشى التاريخ خلفك عبقرياً

يرى دنيا مسيرته اصطلاحا

تأنق موسماً يزهو ويمضي

على كفيك ملتهباً كفاحا

سكبتَ ربيعك الزاهي شفيقاً

على نيسانهِ ماءً قُراحا

فكم نزلت بساحته عقولٌ

يطاردها الدجى ظمأى طلاحا

فقد ألفتْ بعالَمه مناها

فدَلَّلها وأكرَمها صلاحا

(أبا الحرف) الوضيء يشع نوراً

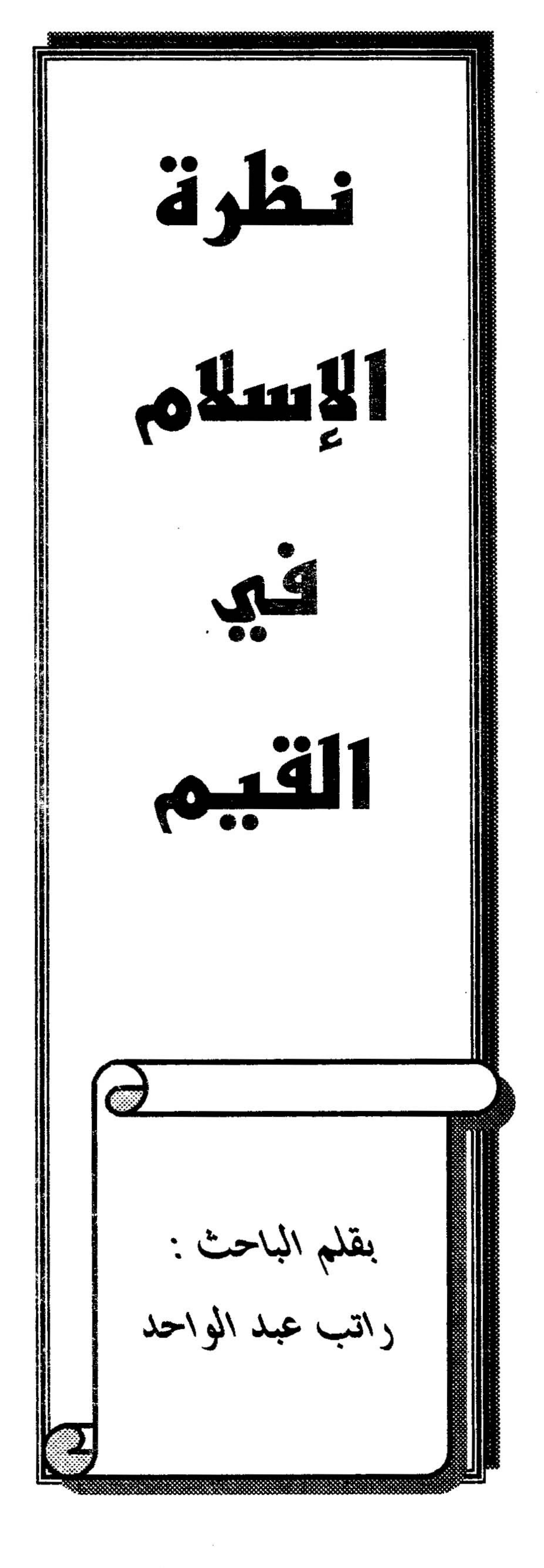
يعرفنا الفصاحة والفِصاحا

كأن بيانك التنزيل يغني

محيًّا الضاد في الجلى لياحا

يعـــز عـــلى حفـــاظك أن تـــراها
عـــلى ســـاح الـــرّدى عرضـــاً مـــباحا
زحمـــتَ غمارهـــا الدامـــي زئيـــراً
وغيـــرك راح يقدمهـــا نواحـــا
وصـــنتَ تـــراثها الـــزاكي وفـــاءً
فشـــق مواكـــبَ الدنيـــا ولاحـــا
ســـموتَ عـــلى ذرى (تشـــرين) نســـراً
تحطـــم لـــلطواغيت الجـــناحا
وتـــرهق صـــولة الطـــاغي صـــموداً
وتكـــبح لـــلمغيرين الجماحـــا
وتخـــترق الـــدجى رأيـــاً رشـــيداً
وثـــاراتِ الميـــادين اجـــتياحا
وتســـتبق الصَّـــباحَ وأنـــت صـــبحٌ
لـــتوقظَ غفـــوةَ الـــثأر اقـــتراحا
وتـــلجم فـــي يميـــنك اريحيًّـــاً
عَـــنِ الشـــام الـــزلازلَ والـــرِّياحا
ومـــن لـــم يعتصـــم بالشـــام نهجـــاً
فمـــا عـــرفت مســـيرته الـــنجاحا
ومـــا مـــرَّ النســـيمُ بغوطـــتيها
عـــلى ذكـــراك إلاَّ العطـــر فاحـــا
وأســـكر دوحَ ســـامرها هـــزارٌ
وهَدهـــدَ وحشـــة الفصـــحى صـــداحا
فمـــا جـــازت غواديـــك الأعـــالي
حيـــاءً مـــن حـــنانكَ والـــبطاحا
فـــدمْ مجـــداً عـــريقاً عـــبقريّاً
وعمـــراً يشـــعل الدنيـــا صـــباحا

ويترفها الكريم من اللآلي
على رغم الدجنة والفلاحا
تعرّقت القصيدة واستقامت
على ناديك غانيةً رداحا
وساحرةً ملامحها فتون
يوهج سحرُها الغيدَ المِلاحا
تغازلها العطور وتقتفيها
على النعمى وتنساح انسياحا
فذبْ يا عطر أطياباً غدوّاً
وكنْ يا شعرُ عندلةً رواحا
وما حَرم الجمال بمستباحٍ
ومن عَبَدَ الجمالَ فلا جناحا
وللشعراءِ دنيا الله تبقى
مقاصيراً وسِرّاً مستباحا
ومن بِدَعِ العجاب فقد تجلت
يراعتك الأسنة والصِّفاحا
تضاحك غرةَ الدنيا بياناً
وتقذف في المرابين الرّماحا
فسبحان الذي أغناك نوراً
لترفِدَ كلَّ ساطعةٍ صَباحا
حنوتَ على العروبة أريحيّاً
تضمد من جوارحها الجراحا
وتسدل فوقها جفناك حبّاً
على أهوالِ محنتِها وشاحا
تطاعنُ عنْ أمانيها الرزايا
وتزرع في أعاليها السِّلاحا
جلوت شموخَها العربيَّ حتى
أتاحَ خلود عزتها أتاحا



هل يعيش الإنسان بلا قيم؟ وما دور الدين في بناء القيم عند أتباعه؟ وما هي أولويات القيم؟ وما دور القيم في حياة المجتمع والإنسانية، وما هو مصير مجتمع يعيش بلا قيم؟ تلك أسئلة تخطر بذهن القارئ الكريم، ولا بد له من أن يجد أجوبة نافعة تقنعه، ولا تترك فراغاً في تفكيره يشغله، وهذا ما سنحاول عرضه والإجابة عليه في هذا البحث، بشكل موجز ومكثف، بعيداً عن الإسهاب الممل أو الاختصار المخل!

عزيزي القارئ الكريم:

أدبيات القيم في الكتب السماوية كثيرة، وأغزرها وأوضحها وأبلغها نجده في القرآن الكريم، الذي أنزله ربنا تعالى على رسوله الصادق الأمين، الذي جمع الله فيه قمة الأخلاق : ((وإنك لعلى خلق عظيم)) وأرسله رحمة للعالمين، ليتمم الأخلاق، ويعلم الناس هذه القيم الرفيعة التي لا غنى لأيّ إنسان عنها البتة، ولا لأي تجمع ديني أو سياسي أو اقتصادي أو ثقافي، ولو انتصر بعض الوقت، أو نجح في بعض مشاريعه لفترة من الزمن، أو حالفه الحظ في مرحلة من مراحل الحياة المختلفة، قال (عليه الصلاة والسلام) : ((إنما بعثت معلماً، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) وقال تعالى : ((وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)) صدق الله العظيم.

الدين أول القيم في حياة الإنسان والكائنات العاقلة:

من الضروريات الأساسية اللازمة للمخلوق العاقل (من ملائكة وجن وإنس) المعتقدات الدينية السماوية، لأن مصائر هذه المخلوقات إلى الله سبحانه وتعالى، كما أن مصدرها وبدايتها عن الله عز وجل، الذي خلق

كل شيء، والمستغني عن كل شيء، والذي يحتاج إليه كل شيء!!

وإذا كانت الملائكة لا تستطيع أن تعصي الله عز وجل أصلاً: ((لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)) بينما المخلوقات الأخرى (الجن والإنس) وإن كان الله تعالى قد أعطاها حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، وبين الفعل وعدمه : ((فمن شآء فليؤمن ومن شآء فليكفر)) . و ((من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها)) . فهذا لا يعني أنه لا يريد لها الهداية والطاعة والنجاة في الدنيا والآخرة، ولأجل هذا أعطاها الله تعالى إلى جانب العقل المفكر، الرسل والأنبياء والشرائع السماوية، ليدلوها إلى الطريق القويم ويرشدوها إلى الأعمال الصالحة، ويربطوها بالقيم المثلى، فالدين مبعث الفضائل والقيم والمكرمات وبدونه يعيش الإنسان والمجتمع حياة الغابة وحياة الهمجية. فالكبير يأكل الصغير والغني يستبد بالفقير، والقوي يظلم الضعيف، والكثير يلغي القليل.

أما الدين فيعطي كل ذي حق حقه. ويعطي كل إنسان قيمته الطبيعية دون إنقاص أو إذلال. قال تعالى: ((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)) وقال تعالى : ((ذلك الدين القيّم)) .

ظهور القيم: تظهر القيمة في السلوك الإنساني عبر جميع القطاعات النفسية – البيولوجية – والاقتصادية والاجتماعية والجمالية والدينية، تظهر في هيئة غاية للنية الواعية، التي تطلب الحرية، ولا قيمة بلا حرية ولا حرية بلا قيمة. ونشير هنا إلى أن الحيوانات باعتبارها مسخرةً للإنسان، فإنها لا تعيش القيم ولا تعيش الحرية، لأنها من دون تفكير وتعيش بلا غاية، بعكس الإنسان الذي يعيش التفكير والإرادة، فيخترع ويبدع ويبتكر ويقرر ويعي ذاته وحاجاته، وما يدور من حوله وما سيؤول مصيره .

أهم أنواع القيم:

١- العقائد الدينية : وتتمثل في أصول الدين وفروعه كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، والموت والنشور والحساب الجنة والنار.. وغير ذلك.

٢- القيم الأخلاقية: كالصدق والأمانة والوفاء بالوعد وإغاثة الملهوف. وشكر من يقدم له معروفاً أو أفكاراً تنير له الطريق في الحياة، ليكون حبيباً للجميع، وناجحاً في سلوكه مع الآخرين.

٣- القيم الاجتماعية: كمساعدة المحتاجين بالمال والدواء والمأوى، وطاعة الوالدين، والتعاون بين الأخوة والأرحام والأقارب، والأصدقاء والجوار، على الخير والمعروف، وتعاون الزوجين على تربية الأولاد وتعليمهم وتثقيفهم، لما يصلح حياتهم في الدنيا وينقذهم في الآخرة، ومحاربة الباطل وأهله، ومحاربة الفساد والمفسدين في الأرض، والتعاون على قول الخير وفعل الخير وموقف الخير، والحفاظ على قيم الجمال للكون والطبيعة، والحوار من أجل علاقات اجتماعية أفضل، وغير ذلك من القيم الإنسانية والثقافية .

٤- القيم المادية: لكل شيء خلقه الله تعالى قيمة.. الجماد والنبات والحيوان، والثروات الباطنية من معادن مختلفة وبترول، وثروة مائية وهواء وبيئة، وعلى الإنسان أن يستثمر هذه القيم ويتقاسمها مع أخيه الإنسان بالعدالة

والسوية، ويشكر بالتالي المنعم بها، وأيضاً يشكر من أسدى إليه معروفاً من خلال اكتشافها أو الاستفادة من مجموعها، كل ذلك لتدوم نعم الله علينا والروابط الإنسانية بيننا، قال تعالى: ((لئن شكرتم لأزيدنكم)) وورد في الحكمة: (وبالشكر تدوم النعم) .

٥- قيمة الوقت: حيث هو كنز الحياة وأحد عناصر الحضارة والإنسان بقدر استثماره لعامل الزمن بما ينفع الناس بقدر ما هو يعيش حالة الحضارة، ويساهم في بنائها واستمرارها.

حياة الإنسان قيمة عُليا :

إن الإنسان أرقى مخلوق على الأرض، وقد دب الله فيه الحياة، وأمره بالمحافظة على حياته وحياة الآخرين، قال تعالى: ((من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)) من هنا يجب على الإنسان ألاّ يودي بنفسه إلى التهلكة ولا يودي بالآخرين كذلك، قال تعالى: ((ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)) حتى الإنسان مطالب بإنقاذ غيره من الخطر، فلو داهم الإنسان خطر ما، فعلى غيره أن ينبهه ويحميه من هذا الخطر قبل وقوعه، ومحاولة إنقاذه عندما يقع بكل ما أوتي من طاقة على ذلك، فلو أن أحد السابحين كان عرضةً للخطر والغرق في الماء، فعلى الآخر إنقاذه، إذا كان يعرف السباحة، أو دعوة الآخرين لإنقاذه أو مساعدته بأية وسيلةٍ ممكنةٍ لإنقاذه.

الإنسان كائن يحدد القيم:

اعتبار أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وجعله خليفة له في الأرض، فقد أوكل إليه تحديد القيم المخلوقة والمسخرة له في الكون، وخصوصاً ما يقع على الأرض، وما يحيط بها من فضاء من ماء وهواء، وجبال وسهول ووديان، وأشجار ونبات، وأنهار وينابيع، وثروات باطنية، وثروات مائية كالأسماك والأصداف والكائنات العديدة الأخرى.

وما يدب على الأرض من دواب مسخرة كلها لخير الإنسان وبقائه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى الإنسان أن يحسن استخدام هذه الأشياء ويحافظ على قيمتها، ليحافظ على كيانه معافى من الدمار والهلاك والفساد، ولا يكون كما الملائكة نظرت إليه نظرة سوداوية فيها الريبة، عندما أعلمهم الله بخلق آدم: ((أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)) وليكن على مراد الله تحت عنوان: ((إني أعلم ما لا تعلمون)) .

إن اكتشاف الذرة واليورانيوم ينبغي أن لا يسخرا لدمار الإنسان، بل لإعمار الكون وتدبير أمر الإنسان ليعيش حياة سعيدة، ولن يتحقق إلاّ بتحقيق العدالة الإنسانية، والحوار الإنساني على مبدأ كلمة (السواء) ! التي من أولوياتها عبادة الله تعالى وحده، وعدم اتخاذ بعضنا أرباباً من دون الله، باعتبار أننا جميعاً أعضاء في الأسرة الإنسانية العالمية، التي تنشد الحق والخير والفضيلة والجمال. وهذه هي غاية الإسلام ((ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) [الروم /٣٠] ((فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله)) [الروم /٤٣] ((وقل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً..)) [الأنعام /١٦١]

والحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً.

أمطارُ الهوى..!

أمطار الهوى..!

شعر: خالد الحنين

يـا أيهـا "الحـلم" السـاري بـه الخـبر

مـاذا أقـولُ "لعصـر" كلـهُ كـدرُ

تمـرُ فـي البـال أيـامُ الحيـاة ومـا

زالـتْ مؤرقـةً فـي بالـنا الصـورُ

رقَّ الفـؤاد وشـفَّ الوجـد فـي مُقلٍ

وطـاف كوكـبٌ هـذي الغـربة البصـرُ

ونحـنُ مـن حـلمٍ دامٍ إلى حـلمٍ

ضـاق الـزمانُ كمـا ضـاقتْ بـنا حُفَـرُ

أنـا الـذي قذفـته الأرضُ كارهـةً

مـن وطـأة الحـزنِ، يـا لَـلْحُزن يـنفجرُ

مُـرّي فصـوتك أمطـار الهـوى رسـمتْ

فـي الخـافقين شـذاً مـا نحـنُ ننـتظرُ

هـي الحيـاةُ مـآسٍ لا حـدود لهـا

ضـجَّ الخيـالُ وقـد ضـاقت بـه الفكـرُ

والجـرحُ مغـتربٌ فـي الـروح منكسـرٌ

فكيـف يقـوى عـلى الآهـات منكسـرُ

نكـادُ نعجـبُ مـن هـول الجحيـم ومـا

يومـاً تحـرك ضـدَّ الغاصـب البشـرُ

نـام الأنيـن عـلى البـلوى كـأنَّ بـه

هـذا الخـنوعُ قـد استشـرى بـه الخـدرُ

كأنَّـهُ الوهـنُ الدامـي يطـوف بـنا

أو المصـائبُ لا تُـبقي، ولا تـذرُ

هـي المـرابعُ غصَّـتْ فـي كآبـتها

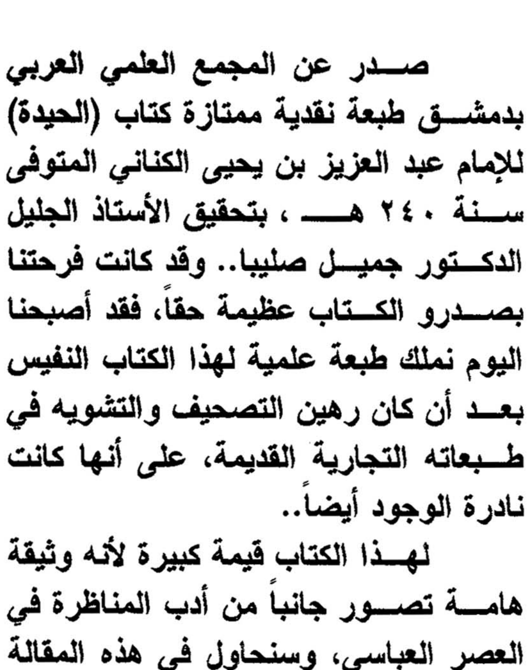
مـاذا دهى وطـن الأحـلام يـندثرُ

عــاد التــتارُ وســاحُ العــرب مــنهزمٌ
والــباكياتُ عــلى الأطــلال تنتَشِــرُ
غــاب الضــياءُ فــلا صــبحٌ يجــيء ســناً
وكــاد يــرحلُ عــن آفاقــنا القمــرُ
فمــن سيســمع صــوت الميــتين إذا
نــادى عــلى جُــثثٍ خرســاء تحتضــرُ
ليــت الــزمانُ يعيــد العمــر ثانيــةً
أو أن يــرد خــطى أحبابــنا السَّــفرُ
إنَّ الحــوادث لا تُــبقي عــلى أحــد
فــلا الصــحابُ بقَــوا فيــنا ولا السَّــمرُ
أمــا رأيــتِ حــراب الشــرِّ زاحفــةً
والذئــب يــلمعُ فــي أحداقــه الشَّــررُ
صــبُّوا الــبلاء عــلى أهــلٍ لــنا ومَشّــوا
فــوقَ الجــراح، فــلا درسٌ ولا عــبرُ
ونحــنُ نصــرخُ، والأوهــام تذبحــنا:
جئــنا نُســاعد.. يــا أصــحاب فانــتظروا
ونحــن مــثلَ جــنون المــوج نمضــي ســدىً
وعــن مواقــع هــذا الســاح ننحســرُ
أطفــال أمتــنا نصــرٌ يجــيء غــداً
يحــفُّ ركــبَهم الآتــي غــداً ظفــرُ
أيــن الأبــاةُ بطــاحُ الكــون ملعــبهم
الكــونُ تحــت خطــاهم مــاد إن عــبروا
هــم الــرجالُ ولِلــتاريخ مــا تــركوا
وهــم كــتائبُ مــا أعطــتْ لــنا مضــرُ
نــادي فــإنَّ جمــوع الــثأر زاحفــةٌ
إذا ادلَهَــمَّ بســاحِ الأمــة الخطــرُ
إنــي قتيــلكِ عشــقاً يــا رُبى وطــني
والوعــدُ لحظــةَ يــروي غُلَّــنا مطــرُ

أدب المناظرة في العصر العباسي

الجزء ١

بقلم:
د. صالح الأشتر



صـــدر عن المجمع العلمي العربي بدمشـــق طبعة نقدية ممتازة كتاب (الحيدة) للإمام عبد العزيز بن يحيى الكناني المتوفى ســنة ٢٤٠ هـــ ، بتحقيق الأستاذ الجليل الدكـــتور جميـــل صليبا.. وقد كانت فرحتنا بصـــدرو الكـــتاب عظيمة حقاً، فقد أصبحنا اليوم نملك طبعة علمية لهذا الكتاب النفيس بعـــد أن كان رهين التصحيف والتشويه في طـــبعاته التجارية القديمة، على أنها كانت نادرة الوجود أيضاً..

لهـــذا الكتاب قيمة كبيرة لأنه وثيقة هامـــة تصـــور جانباً من أدب المناظرة في العصر العباسي، وسنحاول في هذه المقالة أن نرصد قيمة الكتاب ونقدم عرضاً ملخصاً لمـــا فيـــه، ليعـــرف قراء (الثقافة) فضله ويحرصوا على الانتفاع به.

يرســـم الكـــتاب صـــورة من صور الحـــركة الفكرية في عصر المأمون، أزهى مرحـــلة مـــن مراحل العصر العباسي، وهو قطعة نفيسة من أدب المناظرة والمحاورة، وكـــانت مناهج البكالوريا عندنا قبل عقدين مـــن الســـنين تفـــرض على الطلبة دراسة مختارات من الكتاب ليروا فيها مشهداً من مجالس الجدل الفكري في تاريخنا..

والكـــتاب يـــثير مشـــكلة من أهم المشاكل الفكرية في الإسلام، وهي المشكلة الـــتي أثارهـــا المعتزلة بدعوتهم إلى القول بخلق القرآن: وعندما استطاعوا أن يكسبوا عـــدداً مـــن الخلفاء العباسيين إلى مذهبهم أصـــبح القـــول بخلق القرآن عقيدة الدولة خـــلال عشـــرين عامـــاً من حكم المأمون

والمعتصم والواثق.. والعجيب أن يقود المعتزلة وهم أحرار الفكر في الإسلام سيف الإرهاب لإرغام المفكرين على القول بدعوتهم، وأن يلقوا بخصومهم في السجون، وأن يصبوا عليهم كل ألوان المحنة والبلاء، وكذلك مزقت السياط جسم الإمام أحمد بن حنبل وقضى سنة ونصف السنة في غياهب السجون، في سبيل هذه المشكلة الفكرية التي لا يكاد تاريخ الإسلام يعرف لها مثيلاً!

والكتاب بعد ذلك ذو أسلوب رائع، من النمط العالي في الجودة، يسرق حيناً ويسهل حتى يقف القارئ مشدوهاً أمام بساطته ويسره وموسيقيته، وهو يعرض أفكاراً فلسفية لم تغب عنها أصابع أرسطو، وقد أحكم الكناني صياغتها فجاءت مزيجاً فائقاً من الأدب والفلسفة، امتزجت فيه الثقافة العربية الخالصة بالثقافات الأجنبية الأخرى..

قبل أن ننتقل إلى المناظرة يحسن أن نقدم (اشخاصاً) وهم:

١- عبد العزيز بن يحيى الكناني: رجل مكّي من أهل الحديث والسنة، غربي من قبيلة كنانة: أجمع كل من ترجم له، كالخطيب البغداوي وابن حجر والعسقلاني على أنه "كان من أهل العلم والفضل"، وهو ينهض في المناظرة بتمثيل أهل السنة في رد القول بخلق القرآن.
٢- بشر بن غياث المريسي: أعجمي من الموالي، من رؤوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن، في بغداد، وهو يمثل في المناظرة رأي شيعته من المعتزلة.
٣- محمد بن الجهم: معتزلي، له في المناظرة دور صغير إلى جانب بشر المريسي.
٤- المأمون: سابع الخلفاء العباسيين، امتدت خلافته من عام ١٩٨ إلى ٢١٨ هـ ، وفي آخر خلافته بدأ القول بخلق القرآن: وهو ينهض في المناظرة بمهمة الحكم بين المتناظرين، وهو - كما يصوره الكتاب - حكم هادئ نزيه منصف، أو كما يصفه الدكتور صليبا بقوله "كان عقله معتزلياً وقلبه سلفياً، فلا يشأ أن يطغى عقله على قلبه، ولا قلبه على عقله" .

تبقى هنالك ملاحظة لا بد من عرضها قبل الوصول إلى المناظرة، وهي ما أثير حول (الحيدة) وصحة نسبة الكتاب إلى عبد العزيز الكناني، فالذهبي في (ميزان الاعتدال) يقول: "لم يصح إسناد كتاب الحيدة إليه، فإنه وضع عليه أفكا" والسبكي في طبقات الشافعية يرى رأي شيخه الذهبي أيضاً..

وعد عرض الدكتور جميل صليبا لمناقشة هذا الرأي مطولاً، وانتهى إلى القول بأن الكتاب في أصوله القليلة صحيح النسبة إلى الكناني وأن المريدين والمؤيدين والنساخ أضافوا إلى الأصول إضافات لم تغير جوهر الكتاب، ولم تبدل معانيه ومقاصده.

(المقدمة ص: ٢٣) .

مدخل إلى المناظرة:

أقبل الرجل من مكة مع ابنه، يدفعه إلى بغداد إيمان يؤج في صدره فقد اتصل وهو في مكة ما قام به بشر بن غياث المريسي ومحمد بن الجهم من القول بخلق القرآن، وما جر ذلك القول على الناس من فتنة وإرهاب، وإكراه وتعذيب..

الرجل من كنانة، ومن ذوي البأس والعلم في قومه، نذر نفسه لله، واستهان بالقتل في سبيله، فترك أهله وذويه في مكة، ومشى مع ابنه إلى الله!

دخل بغداد في صبيحة الجمعة، وسأل عن مسجد الجامع حتى أتاه، وأقيمت الصلاة جامعة وصلى الإمامة فإذ صوت رجل يدوي في المصلين:

- يا بني، ما تقول في القرآن؟ فيرد عليه صوت جهوري:
- القرآن يا أبت كلام الله منزل غير مخلوق!

ويسمع المصلون ذلك فينفرون من الفتنة، ويتواثبون للهرب من بطش السلطة. ذلك أنهم سمعوا ما لم يكن أحد يجرؤ على إذاعته في الناس..

ويقبض اصحاب السلطان على الرجل وابنه ويحملان إلى عمرو بن مسعدة وكان في المسجد، فيسأله من أنت؟

- أنا عبد العزيز بن يحيى من مكة من بني كنانة!
- ما حملك على أن تقول بما قلت؟
- القربة والزلفة إلى الله ورجاء الوصل وإلى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه ليس غيرا.
- ولم أعلنت وكان الأسرار أولى بك أن تسلكه؟

فأجاب:

- أخاف ألاّ أصل بعد ذلك إلى أمير المؤمنين!

وعين يوم اجتمع فيه جمع عظيم من العلماء القائلين بخلق القرآن في مجلس المأمون وحمل عبد العزيز إليه..

ولما أذن له بالدخول بدأ ينتقل من دهليز إلى دهليز حتى صار إلى الحاجب فسأله عن تجديد الوضوء فاستمهله حتى صلى ركعتين ثم دخل المجلس..

إليه الأنظار وتتابعت الهمسات من كلٍّ جانب ورشقته العيون بالنظرات القاسية وسمع وهو في طريقه إلى المأمون من يهمس في أذنه:

- يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا وجهه فوالله ما رايت خلقاً لله أقبح وجهاً منه!

فأسرها عبد العزيز في نفسه ووقف على خطوات من السرير وألقى السلام على أمير المؤمنين! فرد المأمون السلام واستدنا منه مرات حتى صار إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون ثم أمر بالجلوس فجلس خائفاً وجلا مرتعداً، ثم سأله المأمون عن حاله، يريد إيناسه وصرف الخوف عنه ثم تغافل عنه وسأله عمرو ابن مسعدة عن انتفاخ في بعض نقوش الجص من الإيوان فأجاب عمرو: قطع الله يد صانعه فإنه استحق العقوبة على عمله هذا.

ثم التفت المأمون إلى عبد العزيز وقال:

- يا عبد العزيز لقد عرفت ما كان من أمر فأمرت بجمع مخالفيك لتناظرهم في حضرتي وفي مجلس أكون أنا الحاكم بينكم فإن تبين الحجة لك عليهم والحق معك اتبعناك وإن تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك وإن استقلت منذ الآن اقلناك..

ثم نادى المأمون بشراً أن يقوم إلى مناظرة عبد العزيز فوثب بشر من موضعه كالأسد يثب إلى فريسة فانحط عبد العزيز فوضع ركبتيه وفخذه الأيسر على فخذه الأيمن فكاد أن يحطمه فصاح عبد العزيز:

- مهلاً فإن أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي وإنما أمرك بمناظرتي..

فصاح به المأمون أن يبتعد عنه ثم قال:

- يا عبد العزيز ناظره على ما تريد واحتج عليه، ويحتج عليك، وتسأله ويسألك وتناصفا في كلامكما وتحفظا الفاظكما فإني مستمع عليكما..

فقال عبد العزيز :

- السمع والطاعة لأمير المؤمنين ولكني أحب أن أقول شيئاً فهل يأذن أمير المؤمنين؟
- قال: قلّ كما تريد!
- فقال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين من أجمل من بلغك من البشر وأحسنهم وجهاً من جميع ولد آدم؟
- فقال المأمون بعد أن أطرق هنيهة:
- يوسف !
- قال عبد العزيز: صدقت يا أمير المؤمنين فوالله ما أعطي يوسف على حسن وجهه جرارتي، ولقد سجن وضيق عليه من أجل حسن وجهه ظلماً بغير حق: ثم ما كان من تعبيره للرؤيا وصدق نظره أن جعله الملك على خزائن الأرض، فكان ما بلغه يوسف كله بكلامه وعلمه إلاّ بجماله وحسن وجهه! قال الله عز وجل (فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليه) ولي يقل إني حسن جميل.. أجل يا أمير المؤمنين إني قبيح الوجه فأي عيب يلحقني في صنعة ربي! لقد أنكر عمرو منذ قليل انتفاخ الجص في الإيوان فعاب الصانع ولم يعب الجص!

فقال المأمون:

- العيب إلاّ على الشيء المصنوع إنما لعيب على صانعه!
- فقال عبد العزيز: صدقت يا أمير المؤمنين إن من همس في أذنيك عن قبحي لم يعب وجهي، وليس له ذلك وإنما عاب خالق وجهي!!

فتبسم المأمون وطلب من عبد العزيز أن يدخل المناظرة ولكن عبد العزيز يسأله عن الأصل الذي يعود إليه المتناظرون عند الاختلاف في الفروع فيطلب المأمون منه أن يذكر الأصل فيقول عبد العزيز: الأصل في ذلك يا أمير المؤمنين كتاب الله وسنة رسوله لا غير كما أمرنا الله قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا) فهذا تعليم من الله وتأديبه

واختياره، ولقد تنازعت أنا وبشر وبيننا كتاب الله أولاً وسنة رسوله ثانياً، ثم لا شيء بعد ذلك، ثم يكون القرآن بيننا بعض التنزيل لا بالتأويل لأن من الحد في كتاب الله زائداً أو جاحداً لم ينظر بالتأويل ولا بالتفسير: ولقد قال تعالى لنبيه حين ادعت اليهود تحريم أشياء لم تحرم عليهم (فأتوا بالتوراة فأتلوها وإن كنتم صادقين) وقال (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا) فإنما أمر الله نبيه بالتلاوة ولم يأمره بالتأويل، وإنما يكون التأويل لمن آمن بالتنزيل فأما من الحد بالتنزيل فكيف يناظر بالتأويل؟

- قال المأمون: فناظره بالتلاوة ونص التنزيل!

المناظرة:

قال عبد العزيز فأقبلت على بشر فقلت:

- يا بشر ما حجتك أن القرآن مخلوق؟
- فقال بشر: تقول يا عبد العزيز القرآن شيء أم غير شيء؟ فإن قلت شيء فقد قررت أنه مخلوق، إذ كانت الأشياء وكلها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت أنه ليس بشيء فقد كفرت لأنك تزعم أن حجة الله على خلقه ليس بشيء.
- قلت: ما رأيت أعجب منك تسألني وتجيب عن نفسك، إسألني وأنا أحسن أن أجيبك، وإن ترد أن تخطب وتتكلم لتدهشني وتنسيني حجتي فلن أزداد بإذن الله إلاّ توفيقا!
- فقال المأمون: اسمع يا بشر من عبد العزيز جوابه!
- فقلت: سألت يا بشر عن القرآن هو شيء أم غير شيء، فإن كنت تريد أنه شيء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم فنعم هو شيء: وإن كنت تريد أن الشيء اسم له وأنه كالأشياء فلا!
- فقال بشر: ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا بد من جواب يفهم ويعقل!
- فقلت: إنك يا بشر لا تفهم ولا تعقل (أن شر الدواب عنده الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين) .. ولو فهمت وعقلت ما سمعت لكنت ممن أثنى عليهم الله وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق و (قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).
- فقال المأمون: عد يا عبد العزيز فأشرح ما كنت قلت!
- فقلت: إن الله أجرى كلامه يا أمير المؤمنين على ما أجراه على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته ومن صفاته فلم يتسم بالشيء ولم يجعل الشيء إسما من أسماءه ولكنه دل على نفسه أنه شيء وأنه أكبر الأشياء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم وتذيباً للزنادقة الذين جحدوا معرفته وأنكروا ربوبيته من سائر الأمم، فقال لنبيه (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم) فدل على نفسه

أنه شيء لا كالأشياء، وهو القائل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ثم عدد أسماءه في كتابه ولم يتسم بالشيء، وعدد الرسول أسماء الله تسعة وتسعين اسما فلم تجده يجعل الشيء اسما. ثم ذكر الله كلامه كما ذكر نفسه ودل عليه مثل ما دل على نفسه ليعلى الخلق كلامه من ذاته وأنه صفة من صفاته فقال: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للنفس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) فذم الله ما نفى أن يكون كلامه شيئاً ليس كالأشياء كما دل على نفسه أنه شيء وليس كالأشياء وقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء) ولما أراد الله أن يسمي كلامه أظهر باسم الكتاب والنور والهدى. قال (قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس) ولم يقل: قل من أنزل الشيء الذي جاء به موسى: ويجعل الشيء إسماً لكلامه، وإنما هو نور وهدى وشفاء ورحمة وحق وقرآن وفرقان!

- قال بشر: يا أمير المؤمنيون قد أقر عبد العزيز أن القرآن شيء وادعى أنه ليس كالأشياء وقلت أنا أنه كالأشياء فليأت بنص التنزيل: وإلاّ فقد صح قولي أنه مخلوق إذ كنا جميعاً قد اجتمعنا على أنه شيء والله يقول (خالق كل شيء) بنص التنزيل!

وهنا تعلو ضجة في المجلس وتتوالى الصرخات (جاء الحق وزهق الباطل) وطمع الناس في قتلى فقلت بعد أن أمرهم المأمون بالهدوء:

- قال الله تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقال (إذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون) فدل بذلك على أن كلامه ليس كالأشياء وأنه غير الأشياء وأنه خارج على الأشياء. ولقد أنزل الله خبراً مفرداً ذكر فيه خلق الأشياء كلها فلم يدع منها شيئاً إلاّ ذكره وأدخله في خلقه، وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق، وفصله منها ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة وخارج عنها فقال (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسيرات بأمره إلاّ له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقال (ولله الأمر من قبل ومن بعد) أي من قبل الخالق ومن بعده.. وهو يذكر الله خلق المخلوقات بقوله وكلامه فقال (هو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله وما بينها إلاّ بالحق) وقال (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناها إلاّ بالحق) فأخبر عن خلق السموات والأرض وما بينهما فلم يدع شيئاً من الخلق إلاّ ذكره عن خلقه أنه ما خلقه إلاّ بالحق وأن الحق قوله وكلامه الذي به

خـلق الخلق كله، وأنه غير الخلق وأنه خارج عن الخلق وغير داخل في الخلق!

- فقـال بشر: ادعيت أن الأشياء لا تكون بقوله ثم جئت بأشياء متباينات متفرقات وزعمـت أن الله يخـلق بهـا الأشياء فـأكذبت نفسـك ونقضت قولك ورجعت عمـا ادعيـت من حيث لا تدري وأمير المؤمنين شاهد عليك!
- فقـلت: زعمت يا بشر أني جئت بأشياء ومتفرقات وادعيت أن الله خلق الأشياء ومـا قلت إلاّ ما قال الله عز وجل، ولا أقول أن الله خلق الأشياء بقوله وكلامه وأمره بالحق، وهذه أربعة أشياء لشيء واحد، لأن كلام الله هو كلامه وهو أمره وهو الحق!
- قال بشر: فأين هذا من التنزيل؟
- قلت: قال تعالى (وإن أحد من المشركين اسـتجارك فأجرت حتى يسمع كلام الله) وقـال (وكـذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل) و (أم يقولون افتراه بـل هـو الحـق من ربك) و (إذا تتلى عليهم آياتنا قالوا آمنا به أنه الحق من ربـنا) . وقال(حتى إذا فزع عن قلوبهم قـالوا ماذا قال ربكم قالوا، الحق) وقال (ذلك أمر الله أنزله إليكم) و (إنا أنزلناه في ليلة مباركة..) على أن يقول: (أمرا من عندنا أنا كنا مرسلين) يعني القرآن!
- فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز.
- فقال بشر: لقد أقر يا أمـر المؤمنين بين يديك أن القرآن شيء فليكن عنده كيف شـاء فقـد اتفقنا جميعاً أنه شيء وقال تعـالى (الله خالق كل شيء) فهذه لفظة لـم تـدع شـيئاً إلاّ أدخلته في الخلق، وبذلك صار القرآن مخلوقاً بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير!
- فقـلت: قـال الله تعالى في قصة عاد: (تدمـر كل شيء بأمر ربها) فهل أبقت الريح يا بشر شيئاً تدمره؟
- فقال بشر: لا !
- فقـلت: لقد أكذب الله عز وجل من قال هـذا إذ قـال (فأصـبحوا لا يـرى إلاّ مسـاكنهم) فأخـبر أن مساكنهم كانت باقيـة بعـد تدميرهم، ومساكنهم أشياء كثيرة!
- اسـمع يـا بشـر قـال تعالى: فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وقـال (وقـال وما تحمل من انثى ولا تضع إلاّ بعلمه) فهل تقر يا بشر أن الله علما كما أخبرنا وتخالف التنزيل؟

وهـنا أحس بشر بالحرج: فهو أن قـال أن الله علماً فسأسأله عن علم الله هل هـو داخل في الأشياء المخلوقة أم لا؟ وأن أنكـر لله علما فهو ينكر نص التنزيل فهو كافر.. وأخيراً قال لي:

- الله لا يجهل!
- فقـلت: ليس هذا جوابك يا بشر: أنت حدث عن الجواب!

<u>التتمة في العدد القادم</u>

صيحة عربية

د. سعاد الصباح

أججوا الحقدَ أيُّها الأشقياءُ

لم تمت في عروقنا الكبرياءُ

من حنايا عروبتي رضعَ المجـ

ـدُ وكانَ العُلا وهانَ الفداءُ

أنا أميَ الغرّاءُ فاطمةُ الزهرا

ءُ وأختي العظيمةُ الخنساءُ

وأبي يعرُبُ الذي باركَ الأر

ضَ وقامت في ظلِّه الأنبياءُ

وأخي قاهِرُ الغُزاةِ الصليبيـ

ـيينَ يا ليتَ تنطِقُ الأشلاءُ

وديارِي مبرورةٌ بالضحايا

ولِداتي الأبطالُ والشُهداءُ

هؤلاء الكرامُ قومي فقولوا

من همُ قومُكُم ومن أينَ جاؤوا

من أبوكم من أمُّكم من ذووكُم

أينَ تاريخُكُم وأينَ البِناءُ

خَيــــرُ أســــلافِكُم ذرَتـــــهُ الســـوافي

وطوتـــــهُ فـــــي تيههـــا ســـيناءُ

هكـــذا أدبــروا فــلم يــبق مــنهُم

بعـــدَ موســـى فكـــلُّكُم لُقَطـــاءُ

أيُّهـــا العـــالقونَ فـــي ذيـــلِ أمـــريـ

ـكـــا وبـــالدونِ يَعـــلَقُ الأدنيـــاءُ

كـــم بـــتدبيرِها تهـــاوَت حقـــوقٌ

وســـرت فتـــنةٌ وعـــمَّ بـــلاءُ

كـــم عـــلى نارِهـــا تـــلظَّت شـــعوبٌ

واســـتُبيحَتْ أطفالُهـــا والنِســـاءُ

غيـــرَ أن الـــرحى تـــدورُ عـــلى البـا

غـــي وبعـــدَ الصـــباحِ يـــأتي المســـاءُ

انظـــروا مـــا يُصـــيبُها فـــي فِتـــنا

مَ تـــروا كيـــفَ يصـــمُدُ الضُـــعفاءُ

وانظـــرو الســـودَ جـــائعينَ ولكـــن

هـــم بـــتأييدِ ربِّهِـــم أقويـــاءُ

يـــا بـــلادَ الهـــوانِ يـــا أمَّ صُـــهيو

نَ وبـــالأُمِّ يعـــرَفُ الأبـــناءُ

يـــا بـــلادَ المُهاجـــرينَ ومـــنهُم

جاءَنـــا الضـــائعونَ والدَهمـــاءُ

أنـــتِ أرسَـــلتِهِم لإنشـــاءِ مُـــلكٍ

فـــي بـــلادي قوامُـــهُ الغَوغـــاءُ

أنــت حرَّضــتِهِم عــلى نــزعِ أرضــي
حســبيَ اللهُ إنَّ أرضــي ســماءُ

باركــتها المقدَّســاتُ العوالــي
ومشــى فــي ظلالهــا الأنــبياءُ

زيــنُ أيّامِهــا بشــارَةُ عيســى
ومصــابيحُ ليــلها الإســراءُ

غالَهــا ســارِقو الكــنائسِ جهــراً
فــدَعِ الصــمتَ وانــتفض يــا إبــاءُ

أصــدِقائي مــن كُــلِّ أرضٍ ولــونٍ
نحــنُ للــثأرِ أيُّهــا الأصــدقاءُ

إشــهدوا مــا تَخُطُّــهُ يَــدُ أمــريـ
ـكــا وتــلكَ الربيــبةُ الــنكَراءُ

واشــهدوا أنَّــنا ســنثأرُ لِــلَّـ
ـــهِ واللهِ كــم يهــونُ الفِــداءُ

ويــباهي بِــنا النَــبِيُّ ويرضــى الـ
ـــبيتُ عــنّا والقُــبَّةُ الغــرّاءُ

وتعوديــنَ يــا حبيــبةُ يــا قُــدسُ
ويرضــى المَســيحُ والعَــذراءُ

ولــنا ناصــرٌ مِــنَ اللهِ إنَّ الـ
ـــلَهَ يجــزي بنَصــرِهِ مَــن يشــاءُ

الدكتور خليل صعابات مؤسس كلية الإعلام في القاهرة وأول باحث في تاريخ الطباعة العربية

بقلم:
عيسى فتوح

هاجرت أسرة صعابات الدمشقية من دمشق إلى بيروت في أواخر القرن التاسع عشر، بهدف تحسين أحوالها المادية، وبحثاً عن حياة أفضل فيها، ثم قصد الأخوان ميشال ويوسف صعابات القاهرة فعمل الأول خياطاً، وعمل الثاني في محلات سليم وسمعان صيدناوي الشهيرة للألبسة الجاهزة، وكان يمتلك ثقافة عادية، لكنه يتقن اللغة الفرنسية (هجرة الشوام إلى مصر للدكتور مسعود ضاهر ص١٩٩) .

رزق يوسف صعابات ثلاثة أولاد أكبرهم خليل الذي ولد بحي الفجالة في القاهرة في ٣ حزيران ١٩١٩ وتلقى علومه في إحدى المدارسة الخاصة، ولما نال شهادة الدراسة الثانوية ١٩٣٨ انتسب إلى قسم اللغة الفرنسية في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم) وتخرج فيها عام ١٩٤٢، ثم عين مدرساً للغة الفرنسية في إحدى المدارس الحكومية بطنطا، ولما لم يَرُقْه هذا العمل تركه والتحق بمعهد التحرير والترجمة والصحافة في كلية الآداب، وسجّل رسالة للدكتوراه موضوعها "تاريخ الطباعة في الشرق العربي" نوقشت عام ١٩٥٤ ونال عنها درجة الدكتوراه بامتياز.

لقد لفتت رسالته عن تاريخ الطباعة نظر أستاذه الدكتور إبراهيم عبده، فعينه مساعداً له، وتدرج في عمله بهذا المعهد – الذي تحول إلى كلية للإعلام – حتى أصبح عميداً له.

أصدر الدكتور خليل صعابات بعد كتابه "تاريخ الطباعة في الشرق العربي" عدة كتب منها: قصة الطباعة، والإعلام، وحرية الصحافة في مصر منذ سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٩٢٤ بالاشتراك مع الدكتور لبيب رزق، وكتاب "وسائل الاتصال نشأتها وتطورها" الذي طبع حتى الآن ثماني طبعات، كما ترجم كتاب "تاريخ الكتاب" عن الفرنسية لأريك دي جرولييه وصدر في سلسلة الألف كتاب، وأشرف على أكثر من مائة رسالة ماجستير ودكتوراه.

كتب لي رسالة مطولة في ٢٨ آذار ١٩٩٨ قبل أن يقعده المرض.. حدثني فيها عن كتابه "تاريخ الطباعة في الشرق العربي" فقال: إن الطباعة العربية ظهرت في أوائل القرن السادس عشر، وأول مطبعة عربية ظهرت في بلدة "فانو" بإيطاليا، طبع فيها كتاب "صلاة السواعي" عام ١٥١٤ ثم مزامير داوود عام ١٥١٦ في أربع لغات منها العربية.. وفي عام ١٥٣٠ طبع القرآن الكريم في البندقية، إلاّ أن طبعته أتلفت خوفاً من تأثيره على معتقدات النصارى، لكنهم عادوا فطبعوا الترجمة الإيطالية الأولى له سنة ١٥٤٧، ثم تعددت المطابع العربية في أوروبا، وطُبعت فيها مئات الكتب العربية وأكثرها في لندن" .

أما في الوطن العربي فمن المتفق عليه أن السوريين كانوا السباقين إلى الطبع بالأحرف العربية، وأسبق المدن إلى هذا الفضل هي مدينة حلب، وأول كتاب طبع فيها عام ١٧٠٢ كان في مطبعة حلب التي تأسست بمساعي البطريرك أثناسيوس الرابع الدبّاس وكان كتاباً طقسياً كنسياً، ثم طبع فيها الإنجيل والمزامير عام ١٧٠٦ ، وقد جاء البطريرك بأدوات هذه المطبعة من رومانيا التي زارها عام ١٦٩٨، واستعان بعد عودته بالشماس عبد الله زاخر الذي ولد في حماة عام ١٦٨٠، وكان صائغاً وصانعاً ماهراً، فصب لها الحروف العربية، وطبع فيها عشرة كتب، وقد عاشت هذه المطبعة حتى سنة ١٧١١ .

أما لبنان فإن أقدم مطبعة عربية عرفها هي مطبعة مار يوحنا الصايغ التي أسسها الشماس عبد الله زاخر في الشوير عام ١٧٣٣ وطبع فيها الكثير من الكتب الدينية، مثل كتاب المزامير الذي طبعه طبعتين، والكتب التاريخية والأدبية.. وإذا كانت مطبعة دير مار قزحيا قرب إهدن قد تأسست عام ١٦١٠ إلاّ أنها لم تكن مطبعة عربية بل سريانية، ولم تطبع إلاّ كتاباً واحداً، ثم توقفت عن العمل.

وأضاف في رسالته، لقد انتشرت المطابع بعد ما شعر الشعب أنه بحاجة إلى أن يتعلم، فالعلم هو السبب الحقيقي لانتشار الطباعة..

صحيح أن نابليون بونابرت حمل معه مطبعة في أثناء حملته على مصر سنة ١٧٩٨ لطبع منشوراته، لكنه عاد بها إلى فرنسا بعد انتهاء حملته التي دامت ثلاث سنوات، وليس صحيحاً أن الفرنسيين تركوا مطابعهم وحروفهم في مصر، وأن محمد علي باشا استعان بهذه المطابع وحروفها، وقد ذهبت إلى فرنسا عام ١٩٥٠ وزرت محفوظات وزارة

الحربية فيها للتأكد من ذلك، فأكد لي المشرف على هذه المحفوظات أن الحروف عادت مع انتهاء حملة نابليون سنة ١٨٠١ وأنها وصلت إلى ميناء طولون، ثم نقلت إلى باريس، وكانت هذه الحروف عربية وفرنسية ويونانية لأنه كانت في مصر يومئذ جالية يونانية كبيرة.

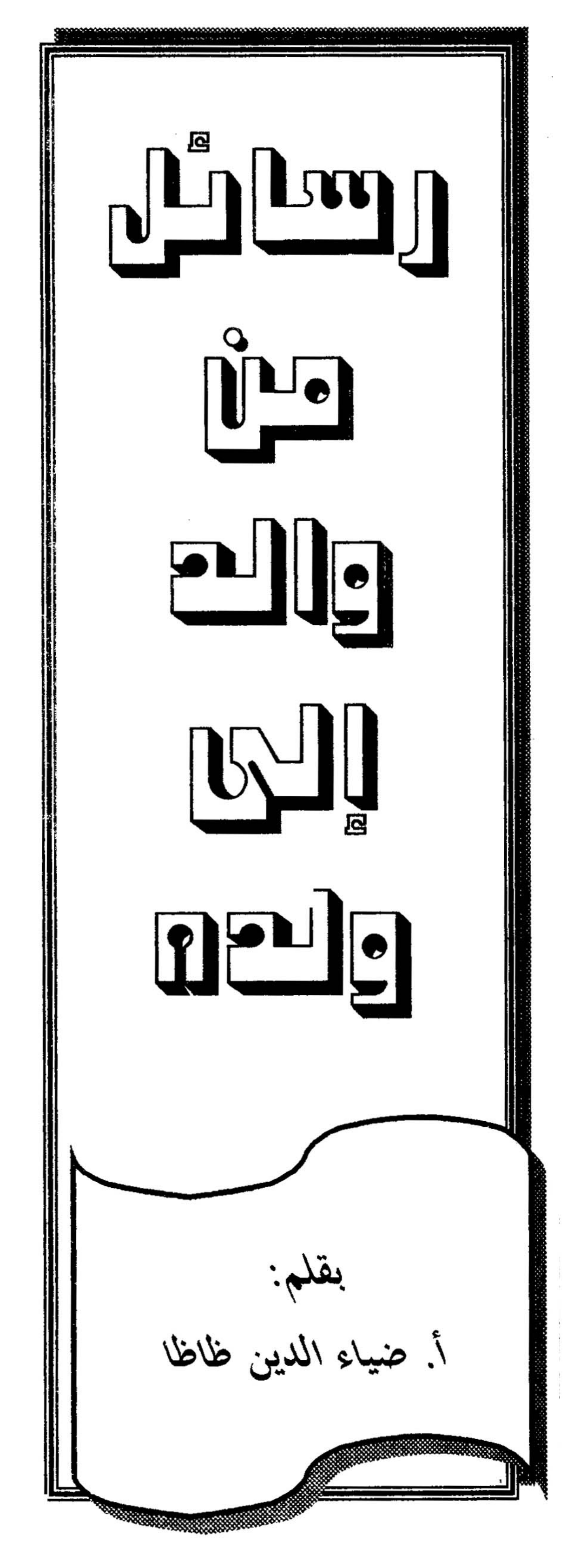
مطبعة بولاق ودور نقولا مسابكي الدمشقي

وقال لي في رسالته التاريخية المهمة:
إن مصر بقيت بعد جلاء الفرنسيين عشرين عاماً بلا مطبعة، حتى استقرت الأمور لمحمد علي فأسس مطبعة بولاق سنة ١٨١٩ وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي الدمشقي الذي كان قد أتقن فن الطباعة في إيطاليا التي سافر إليها عام ١٨١٥ وقضى في ميلانو أربع سنوات تعلم خلالها صناعة الحروف وسبكها (وربما لقب بالمسابكي لأنه كان يسبك الحروف) ولما حط رحاله في مصر اشتغل في جمع طاقم من الحروف العربية والتركية وتدريب العمال، وطُبِع في هذه المطبعة معجم إيطالي عربي عام ١٨٢٢ واجرّومية باللغة العربية الفصحى لأحد علماء القاهرة، وقد ظل نقولا مسابكي مديراً لمطبعة بولاق حتى وفاته سنة ١٨٣٠.

وختم رسالته لي بأنه زار مسقط رأس أبيه يوسف صعابات بدمشق في الثلاثينات، حين كان في الحادية عشرة من عمره، ثم زارها عام ١٩٥٢، حين كان يقوم بجمع المعلومات عن تاريخ الطباعة لإعداد رسالة الدكتوراه، وقد زوّده كبار الباحثين والصحفيين وأصحاب المطابع بمعلومات مهمة تتعلق بصناعة الطباعة في سورية أفادته كثيراً.. وقال إنه منذ عام ١٩٥٠ وحتى اليوم لا يزال يجمع المعلومات ويزيد وينقّح كتابه الفريد عن الطباعة، ويعتبر أن رسالته مفتوحة لن تغلق مادام على قيد الحياة، وما دام قادراً على القراءة والبحث والتنقيب..

إنه يقضي وقته في العمل.. وفي القراءة أولاً، ثم في الكتابة إن لم يذهب إلى كلية الإعلام التي أمضى فيها نصف قرن، وفي مواسم الأوبرا والحفلات الموسيقية الكلاسيكية يحجز أو تحجز له زوجته مكانين في الأوبرا ليتذوقا فيها أنغام الموسيقى الناعمة، وقفزات رقص البالية الهادئة، وكبار السن في مصر ينعمون بتخفيض في هذه الحفلات يصل إلى خمسين في المائة من ثمن بطاقة الدخول، وأجمل ما في هذا المسرح مواعيده التي تبدأ في الثامنة وتنتهي في الغالب في العاشرة أو العاشرة والنصف، يعود بعدها إلى بيته وقد امتلأ ذهنه برحيق موسيقى حالمة تربطه بالحياة أكثر فأكثر، فأدعو للمفكر الذي قال: "إن الموسيقى تشذب السلوك وتهذبه" وأطالب بأن يتذوق أبناؤنا الطلبة هذه الموسيقى ليتهذبوا ويزدادوا حباً بالفن وإدراكاً له.

لم يكتب لي د. خليل صعابات بعد هذه الرسالة شيئاً لأن المرض أقعده عن الكتابة بعد أن تجاوز الثمانين ، شفاه الله.



ظهـــر في الأدب العربي المعاصر نوع من الكتب ذو طابع تعليمي وتربوي على شكل رســائل موجهة من الآباء إلى أبنائهم، لتكون لهــم هداية ونبراساً في حياتهم وسلوكهم وهم في ديار الغربة حيث يتابعون دراستهم دون أن يكون عليهم رقيب أو حسيب. ومن هذا النوع نجد ثلاثة منها هي:

١- من والد إلى ولده لأحمد حافظ عوض.
٢- رســائل إلى ولـــدي لمحمد حسين هيكل مؤلف رواية "زينب" .
٣- إلى ولـــدي لـــلكاتب العلامة أحمد أمين، وهـــي رسائل نشرها على صفحات مجلة "الهلال" ثم جمعها في كتاب.

ولا ريـــب أن هذا النوع من المؤلفات ليس من ابتداع الأدباء العرب، فقد سبقنا إليها الكتاب الأوروبيون.

والكـــتاب الـــذي نحـــن بصدد عرضه ودراسته هو "من والد إلى ولده" الذي صدرت طبعـــته الأولى في القاهرة سنة /١٩٢٣/ ، ثم أعـــاد تحقيقـــه ســـعيد المقداد وظهرت طبعته الثانية بدمشق سنة /١٩٨٦/ .

حياة الكاتب

فمـــن هو مؤلف الكتاب، وما مناسبة تأليفه، وما هدفه منه؟

ولـــد أحمـــد حافظ عوض في القاهرة ســـنة /١٨٧٧/ وتوفـــي ســـنة /١٩٥٠/ إثر مرض ألزمه بيته عدة سنوات، وبعد أن عاش ثلاثة وسبعين عاماً.

وقـــد كـــان المؤلف مترجماً وصحفياً وسياســـياً، وكـــانت لـــه جريدة اسمها "كوكب الشرق" ، كما كان عضواً في مجمع فؤاد الأول لـــلغة العـــربية، وقد أصدر في حياته عدداً من المؤلفات هي:

- فتح مصر، أو نابليون بونابرت في مصر.
- من والد إلى ولده.
- اليتيم.
- حياة شاب.

وكتابه "من والد إلى ولده" عبارة عن تسع عشرة رسالة خاصة بعث بها إلى ولده في بيروت، حيث كان يدرس في الجامعة الأميركية. وهي رسائل ذات طابع ذاتي خاص لكنها تتضمن أفكاراً تربوية وتعليمية تعني الناشئة بشكل عام، كما تعني الآباء والمعلمين. ففيها أفكار نيرة ومعارف دقيقة وثمينة، وعواطف نبيلة، فضلاً عن أنها مصاغة بلغة عربية رفيعة، وأسلوب بياني أنيق، وهيكل فني حي، مما يدخله في عداد الكتب الأدبية التربوية الممتازة.

وقد علق في حينه الكاتب محمد المويلحي على الكتاب حين قرأه بقوله: "وقد استبشرت خيراً عند اطلاعي على هذا الكتاب. فقد ألم بالشيء الكثير في باب التربية والتعليم، وتناول القول فيه أحسن متناول، ولو تعددت بيننا مثل هذه الرسائل لأيقنا بالوصول إلى طريق الكمال المنشود، ولسعد فينا والد ولم يشق مولود" .

ويقول سعيد المقداد، محقق الكتاب: إن رسائل المؤلف إلى ولده قد توقفت عند الرسالة التاسعة عشرة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وانقطاع المواصلات بين مصر وسورية فلم يكتب الكاتب بعد هذه الرسائل شيئاً إلى ولده.

فماذا أراد الوالد أن يقول لولده؟

في رسالته الأولى يهيئ الوالد ذهن ولده عما يريد أن يقول له، حيث يؤكد على أنه لا توجد في الدنيا عاطفة أقوى من عاطفة الأب نحو فلذة كبده، ولذا فإن النصح عندما يصدر من قلب الأب فإنه يصدر من نفس متشبعة بنور الحب الأبوي الذي لا يشوبه أي نفع، وسيكون حبه الأبوي واسطة لتهذيب مشاعر ابنه، كما أنه سيزيد تلطيف مزاجه وترقيق وجدانه.

ولا ينكر الكاتب الأب أن ابنه سيجد نفسه ذات يوم، عندما يبلغ مبلغ الرجال على خلاف مع أبيه في بعض الآراء التي طرحها عليه، ولكنه يدعو ابنه لأن يستفيد من تجارب من هم أكبر منه سناً ويستشهد بقول القائل: "لعل آثار أقدامنا في رمال الصحراء تهدي ضالاً إلى سبيل الأمن والهناء" .

وقد انتقد الكاتب في رسالته الثانية الطريقة التعليمية القديمة التي عملت على حشو أدمغة الأولاد بما هب ودب من معلومات لا يرى أي نفع في كثير منها وتضر بصحتهم وتجعل استعدادهم أقل مما لو ترك الولد ينمو في الطبيعة حراً، يفهمها وتفهمه، وقد قال أحد علماء التربية الحدثيين: يجب أن يقرأ الطفل في الطبيعة أكثر بكثير مما يقرؤه في الكتب، وقال الكاتب إن ما يجب الحرص عليه في هذه السن هو شحذ الذهن وتوسيع دائرة الحياة وتنمية المنطق والاستدلال والقياس، كل ذلك من أجل مواجهة أمور الحياة وأحداثها والسعي لمعالجتها والتكيف مع كل ظرف يناسبه، وأضاف الكاتب مخاطباً ولده: "فأنا لا أهتم بما تحفظ وتقرؤه وتجيده، من علم في صغرك بقدر ما أهتم بحسن نظرك للأمور ومعالجتها، وصدق فراستك وشغفك بالمعرفة وولعك باكتشاف ما لم تعرفه بعد، وعند ذلك تكون أقدر على مقاومة مصائب الزمان، ومواجهة الحياة في سرائها وضرائها" .

ويؤكد الكاتب لولده على أهمية تقوية ملكة البحث والاستقراء والملاحظة لأنها

أساس كل تربية وتعليم وتهذيب واستعداد للجهاد في الحياة، وركز على أهمية العلوم والمعارف المتعلقة بالزمن الذي يعيش فيه. فلكل زمان طرق جديدة لإيصال المعارف الهامة إلى عقول الناشئين.

وإن مهمة المدرسة الأولى والأساسية هي إعدادهم للحياة لا للعزلة عن الحياة، وإن أية معارف أو ثقافة لا توصل إلى هذا الهدف العظيم لا قيمة لها. ويضيف الكاتب: "لو أن كل أب أو أم، وكل أستاذ ومعلم وجه نظر ابنه أو تلميذه إلى شحذ القريحة ولفت الذهن إلى التفكير والتأمل والقياس والاستنتاج والملاحظة والمقارنة في كل ما يعرض له على النظر، و يقع تحت مجهر الحس لنمت فيه تلك الملكة السامية التي لا تتم أية تربية صحيحة بدونها".

ودعا الكاتب ابنه إلى أن لا يمر على كل ما يقع تحت نظره مرور الأعمى، وهو ذو عينين مبصرتين، وأن لا يخجل، إذا أشكل عليه أمر، أن يسأل من هو أعرف منه.

ويتطرق الكاتب في رسالته الرابعة إلى مسألتين هامتين:

الأولى: هي العلاقة ما بين التلميذ وأستاذه، فدعا ولده إلى أن يعتبر أستاذه بمثابة أب له، وأن يتعامل معه كما يتعامل الإبن مع أبيه، التعامل القائم على الحب والاحترام والتقدير، لأن العلاقة الصحيحة السليمة بين الأستاذ الشيخ وتلميذه الفتى، حسب تعبير طه حسين، تجعل التعليم مريحاً للأستاذ، ومفيداً للتلميذ.

الثانية: وهي أن لا يُقبل على تعلم شيء إلاّ إذا أحبه ومال إليه، لأن كثيراً مما يتعلمه التلميذ ينساه بعد الامتحان. ويخاطب ولده قائلاً: "إنك لا تستطيع أن تتابع تعليمك باللذة والسرور ما لم تكن محباً للعلوم، ومقبلاً عليها، غير مسوق للمدرسة بالترهيب، لأن محبة العلم تخفف ثلاثة أرباع المشقة في تلقيه وممارسته" .

ولم ينسى الوالد أن يوجه ولده نحو العناية بصحته، لأن العقل السليم، كما يقول المثل، هو في الجسم السليم، ولذا يحثه على ممارسة التمارين الرياضية، وعبر الكاتب عن سروره لأن الرياضة أصبحت جزءاً من وظيفة المدارسة الحديثة، ولكنه حذر ولده من الإفراط في ممارستها لدرجة الإنهاك.

تعلم اللغات الأجنبية

وقد أولى الكاتب الاهتمام الكبير باللغات الأجنبية، وقد خصص لها ثلاث رسائل وقد علل ذلك بقوله: "بما أن مصر قضت عليها الظروف بأن تكون قطعة من أفريقيا، وقطعة من أوروبا، صار من اللازم على كل ناشئ مصري يريد خدمة بلاده ورقي أمته أن يتربى تربية خصوصية تجمع بين المعارف الشرقية والآداب العربية والعلوم الغربية، ومن أجل ذلك لا بد من تعلم لغة أجنبية، إما الإنكليزية أو الفرنسية أو كليهما معاً، تعلماً تاماً، لأن إجادة إحدى اللغات الأجنبية – حسب تعبيره – تعد بمثابة وضع حجر الأساس في بناء صرح مجد المستقبل، ولذلك حث ولده على إجادة لغة أجنبية، إنكليزية أو فرنسية، إجادة تامة، حديثاً وكتابةً، وقد حذر ولده، من أن اللغات لا تؤخذ اغتصاباً، ولا تتقن لهواً وتسلية، بل تحتاج إلى الجد والتعب والعناء، وأن ينصرف إليها بعقله وقلبه، منذ صغره، لأن العلم في الصغر كالنقش في الحجر، كما يقول المثل الشعبي، مما سيفيده في قابل أيامه، ورسم له خطة محكمة لدراسة اللغة الأجنبية وسبل حفظها واستيعابها، وقال له: "إن الغاية البعيدة من تعلم اللغة الأجنبية هو الحصول على ثقافة واسعة لا يجدها في اللغة العربية" .

وقد أولى الكاتب أهمية خاصة للترجمة إلى العربية ومنها. ودعا ابنه إلى التفوق على أقرانه في هذا المضمار. وأضاف: بما أن البلاد تمر في مرحلة انتقالية - في عهد المؤلف - توجب الاعتماد على معارف الأوروبيين الأدبية والعلمية والصناعية والتجارية، كما تحتم علينا حسن التفاهم معهم وإيقاف قومنا على أحوالهم ومستحدثاتهم ومنشآتهم، كما فعل الطهطاوي قبلاً.

وينبهه إلى أن الترجمة ليست عملاً سهلاً، فهي تحتاج إلى عمل شاق ومران طويل ودقة في العمل وسلامة في الذوق، وقبل كل شيء أن يكون المترجم على دراية تامة باللغتين وأساليبهما في التعبير وصياغة الجملة واستخدام المصطلحات استخداماً دقيقاً. ثم قدم لولده بعض الإرشادات التي اعتقد أنها مفيدة لولده من خلال الخبرة التي حصل عليها في حياته.

اللغة العربية

من الطبيعي أن يوجه الكاتب ولده إلى تعلم اللغة العربيَّة، وإجادتها قراءة وكتابة، لأنها لغة قومه، لكنه في الوقت نفسه لا يريد أن ينصرف كلياً إليها، وكل ما يريده لابنه هو أن يكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب رصين وذي طلاوة في العبارة، وصحة في التركيب وحسن الإنشاء، حتى يتفرغ للمواد الهامة الأخرى التي يود له أن يبدع فيها.

ومع ذلك وضع لابنه برنامجاً واسعاً جداً فوق طاقته، ولا يحتاج إليه إلاّ كل مختص باللغة العربية وآدابها. فطلب منه أن يقرأ أمهات الكتب القديمة وينتقي ما يشاء منها وما يعجبه بدءاً من كتب النحو والصرف والبلاغة وانتهاءً بالمراجع الأدبية القديمة الكبرى مثل: "أدب الكاتب" لابن قتيبة، و "الكامل" للمبرد، و "البيان والتبين" للجاحظ، و "الأمالي" لأبي علي القالي، وأضاف إليها القصص والروايات والسير التاريخية المشوبة بالخيال والخرافات، ككتاب "ألف ليلة وليلة" و "سيرة عنترة بن شداد" و "كليلة ودمنة" والأدبين الكبير والصغير" لابن المقفع، و "مجاني الأدب" والعقد الفريد" .. إلى آخر هذه القائمة الطويلة العريضة التي لو نفذها ابنه لاحتاج إلى صرف سنين طويلة عليها، ولتخلف عن دراسة العلوم التي وجه ابنه للتخصص بها. ثم ركز الكاتب في رسائل أخرى على دراسة العلوم الطبيعية والتاريخ الذي يعتبره من ألذ الفنون.

خبرة أب وتجاربه

وفي رسالته السادسة عشرة قال إنه يود أن يقدم لولده زبدة خبرته في الحياة لئلاً يقع في مثل ما وقع فيه هو من أغلاط، وما واجه من عثرات، ولكي لا يدفع في حياته المقبلة ما دفعه هو من ثمن غال وما تجرَّعه من مرارة الحياة وما ذاقه من آلامها، ولكن الكاتب لا يريد في نصحه لولده أن يكون متشدداً، وقال: إن الزمن الذي كان يصح فيه النصح بالترهيب والوعيد قد مضى، لأن الزمان يتغير والأساليب التربوية يجب أن تتغير معها.

ويلخص الكاتب في رسالته الأخيرة لولده الهدف البعيد الذي رمى إليه من رسائله وهو تحقيق النجاح في الحياة. وقد وضع أمام ولده سؤالاً: ماذا نريد بالنجاح في الحياة؟ وهنا استشهد بأقوال كثير من الكتاب والفلاسفة والحكماء، وأورد تعريفاً جاء فيه: يراد بالنجاح في الحياة "هو وصول إنسان إلى غاية يعدها الناس، ويراها الواصل إليها غاية عالية"

وقد ناقش هذه المسألة من جوانبها المختلفة من خلال أقوال الآخرين.

فأحد الكتّاب الألمان حصر معنى النجاح في الحياة بقوله: "أن يكون الإنسان محترماً، ذا قدر عظيم في نظر الكثير من الناس" ولكن غيره يناقض كلامه ويتساءل: "ماذا يهم الإنسان أن يكون محترماً في نظر الناس، وهو منغص الفكر حزين القلب"؟ ويتساءل آخر: هل النجاح في الحياة أن يكون محترماً عند الناس وهم لا يحترمون إلاّ الأغنياء، ولو كانوا جهلاء، ويحترمون أيضاً كثيرين ممن قام مجدهم الظاهر على ظروف وأحوال، ووصلوا إلى مراكزهم بأحط الوسائط وأدنأ الوسائل؟ ويخلص الكاتب إلى القول: "إن اختلاف الناس في الغاية التي يرمون إليها هو الذي يزيد الموضوع إشكالاً. فهذا يرى النجاح في الحصول على مركز حكومي وآخر يراه في اكتساب المال وثالث يراه في رفعة الجاه، ورابع في إصلاح حال البشر أو نشر فضيلة وقطع دابر رذيلة، ولله في خلقه شؤون" .

أسباب النجاح

ثم يتساءل الكاتب: لأي شيء ينسب النجاح في الحياة؟ هل ينسب إلى الحظ أو إلى الجهد والعمل المتواصل؟

فبعض الناس يعزو النجاح إلى الحظ والصدفة. وقد قال الشاعر الإنكليزي بوب نحن ألعوبة بيد الأقدار، ترمينا يميناً وشمالاً، ونحن لا نعرف إلى أين نسير ولا نعرف شيئاً مما ينتظرنا بعد لحظة واحدة" وهذا منتهى القنوط والسوداوية ويجعل الإنسان كريشة في مهب الريح لا حول له ولا قوة.

أما الفريق الآخر فيرى أن النجاح لا يتحقق إلاّ بالجد والعمل والاجتهاد وانتهاز الفرص المناسبة، والاعتماد على الثقة بالنفس. وقد قال السير جون لوبك في كتابه "مسرات الحياة" : كل من يسعى للفوز في الحياة يناله. ولعمري، إذا حاول الإنسان وفشل لا يخسر شيئاً مطلقاً، اللهم إلاّ إذا تولاه اليأس ودخل في قلبه القنوط. وإننا إذا لم نحصل على مرادنا مرة فليس ذلك بداعٍ على انقطاع الآمال.

ويصل الكاتب إلى نتيجة هامة وهي أنه لا نجاح بدون جهد وتعب ومشقة،

ولكنه ليس كفيلاً به، وعدم كفالته يرجع إلى اتساع دائرة المطامح، وعدم تعيين الغاية المرجوة، والعقبات التي تعترض سبيل النجاح وتحبط عمل الإنسان الطموح، والتردد في اتخاذ القرار، والثبات والصبر وقد قال علي ابن أبي طالب: "لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان" .

وأحياناً، إذا لم يغتنم الطموح الفرصة التي تواتيه فسيخسرها ولن تعود مرة أخرى.

وقد قال الشاعر الفرنسي فيكتور هيغو: "توجد بعض دقائق ولحظات إذا نام فيها الإنسان مات" . وقال العربي: "إن الفرصة إذا لم تنتهزها تصير غصة" .

وينهى الكاتب نصائحه لولده بقوله: "هذه هي شؤون الحياة وضرورتها. فاختر لنفسك ما يحلو لك، إن كنت طموحاً طامعاً متطلعاً للثروة والفوز والجاه، ولكني أنصحك بالرجوع في كل شيء إلى عقلك، وقدِّرْ ما تريده لمستقبلك وراحة فكرك" .

أبو الجود

شعر : جابر خيربك

في أربعين المرحوم أخي جميل بتاريخ ٢٠٠٢/١/٢٥

أناديك هل تُصغي، وهل أنت تسمع
لي الله كم فاضتْ على الهجر أدمع
أناديك يا مَنْ كنتَ في الفكر حاضراً
وفي العين سُكناه وفي القلب يرتع
أناديك حتى ضاع في جانحي الصدى
وضجَّتْ بآهات الملوَّع أضلع
بعادك أدمى المقلتين فذرَّفتْ
دموعاً على الخدين كالنار تلسع
فأنت بأحنائي مقيمٌ وساكنٌ
ولو أقفر المغنى وشطَّ التجمع

* * *

"أبا الجود" هل تمضي وتُخلف موعداً
وما كنتَ عن وعْد الأحبة ترجع
"أبا الجود" هل في الحي بعدك بسمةٌ
تفرّج همَّ المستهام وتدفعُ
رحلتَ ومن صدري حملت على النوى
فؤادي فأيَّ الراحلين أودّع
وحبك دارُ العزِّ باتت حزينةً
تلمُّ الأسى حيناً وحيناً توزع
فقد ودَّعتْ في محنة الدهر كوكباً
إذا ما دجا ليل النوائب يسطع
فتذكر ماضيه وتندب حظَّها
وتسأل عنه والمدامع هُمَّع

تطــــوف بهـــــا الأحـــــلام تـــــنهش جفـــنَها
وأنّاتهـــــــا إنْ شـــــفّها الوجـــــــد تُســــــمع
مــــــرابعُها غاضــــــتْ وغاضـــــتْ مــــــروجُها
كـــــأن المغـــــاني والخمـــــائلَ بــــــلقع
وعـــــند الأماســـــي والســـــكون يـــــلفُّها
تــــــناديك فـــــي صــــمت مريـــــرٍ وتهـــــرع
إليـــــك. ولكـــــنْ كيـــــف تـــــلقاك والـــــردى
طـــــواك. وســـــيفُ الهجـــــر بالصـــــدر يقطـــــع
* * *
"أبـــــا الجـــــود" هـــــذي مهجـــــتي وجـــــراحُها
تــــــنزُّ ولا طــــــبٌّ يفيــــــدُ ويــــــنفع
فقـــــد بَعُـــــدَ الآســـــي عـــــن العيـــــن وانطـــــوت
شـــــمائله والقـــــلبُ باليـــــأس مــــــترع
تمـــــــنيتُ أنْ تــــــبقى كظـــــــلٍّ عريشـــــــة
نعـــــودَ إليهـــــا فـــــي الهَجيـــــر ونُســـــرع
ونـــــرتاح فـــــي أفيـــــائك الفيـــــح كـــــلما..
المَّـــــتْ بـــــنا الشـــــكوى فصـــــدرك أوســـــع
تـــــرشُّ عليـــــنا الحـــــبَّ والبِشـــــر والـــــندى
ونغفـــــو عـــــلى الحضـــــنِ الـــــرحيم ونهجـــــع
فـــــليت الـــــليالي القاهـــــراتِ تمهـــــلَتْ
وخـــــلَّتْ أمانيَـــــنا بعطفـــــك تمـــــرع
ولكـــــنَّ أمـــــرَ الله فـــــي العـــــبد نـــــافذٌ
فـــــليس لـــــه ردٌّ. وللأمـــــر نخضـــــع
وليســـــتْ عشـــــيّاتُ "الحـــــمى" (١) بـــــرواجعٍ
إليـــــنا ولا ذاك الـــــنعيم ســـــيرجعُ
ســـــتبقى لـــــنا الذكـــــرى تُـــــلحُّ مريـــــرةً
وهيهـــــات أن ينســـــى الأحـــــبة مدمـــــع
* * *
زمـــــانكَ كـــــان الظـــــلَّ والـــــنورَ والشـــــذا
وأنـــــت لـــــنا إنْ أظـــــلمِ الـــــليلُ مـــــرجِع
تمـــــدُّ لـــــنا الكـــــفَّ الـــــرحيمةَ حانيـــــاً
تحاســـــب مَـــــنْ آذى الكـــــرام وتـــــردع

أبياً وفيّاً في الملمات سيداً
وبيتُك مأوى المتعبين ومطمع
تجود ولا يسرٌ لديك مخزّنٌ
ولكنّ نفس الحرِّ بالعسر تُبدع
تعودت أن تحيا كريماً ومؤمناً
بأنّ بقاء الذكر للمرء أنفع
فعشتَ على الإيثار والبرِّ والتقى
وبالخير والإحسان طبعُك مولع
تشارك بالنعمى العفاةَ تراحماً
وتحرث أرض المعوزين وتزرع
فكم أزهرتْ في كل بيت خميلةٌ
تبدد غمّاءَ النفوس وترفع
وجاء قضاء الله فيك فأسرعتْ
قلوبٌ تردُّ الموتَ والموتُ أسرع
فلبيتَ صوتَ الحقِّ أصفى من الندى
وثغرُك مفترٌّ . ووجهُك أبدع

* * *

سقى الله اياماً تقضتْ كأنها
سرابٌ ورؤيا خلف جفنيَّ تقبع
تعود ونفس المستهام مشوقةً
إلى خلّها . والموت شيءٌ مروّع
تمزقها الذكرى ويخنقها الأسى
فلا الموت يطويها ولا الخِلُّ يرجع

* * *

"أبا الجود" هل تُصغي وتسمع باكياً
كواه النوى واحتار كيف يشيّع
إذا كان سرُّ الموت قد حال بيننا
صحونا وأجراس التباعد تُقرع
وشقَّ شغافَ القلبِ موتك مثلما
يشقُّ ويدمي جانبَ الصدر مِبضَع
فلله ما يلقى المحبُّ إذا نأتْ
عن العين حبّاتُ القلوب وتنزع

وللهِ كـــم ســـالت عـــلى الـــبعد مقـــلةٌ
وللهِ كـــم قـــلبٌ يضـــجُّ ويهـــلع

* * *

"ابـــا الجـــود" إنّ الصـــبرَ خيـــرٌ وبلســـمٌ
ولكـــنَّ جـــرح القـــلب دامٍ وموجـــع
فهـــل تنشـــف الأحـــناء مـــن نـــزف حـــزنها
وفـــي كـــلِّ يـــوم عـــند ذكـــراك تنـــبع
ســـقى عصـــركَ الـــرحمنُ كـــم كـــنتَ فارســـاً
إذا مـــا دعى الداعـــي تضـــرُّ وتـــنفع
ســـموتَ بـــأخلاق الكـــرام ولـــم تكـــنْ
مـــلولاً. ووجـــه الحـــرِّ كـــالدرّ يـــلمع
إذا بشّـــروا بالمكـــرمات وفاضـــلوا
بـــأهل الـــندى دلَـــتْ عـــلى الـــبيت إصـــبع
وقـــالوا هـــناك الجـــود حـــطَّ رحالـــه
ومـــن بابـــه عطـــرُ الرضـــى. يتضـــوَّع
وبعـــدك يـــأتي كـــلُّ مـــن يدَّعـــي الـــندى
كـــأنك شـــمسٌ والكواكـــب تـــبَّع
فكيـــف يضـــمُّ القـــبرُ مَـــنْ كـــان جـــودُه
تضـــيق بـــه الدنيـــا ولا يتصـــدع

* * *

دروبُ الأماســـي ســـوف تدعـــوك كـــلما
ألمّـــتْ بهـــا الذكـــرى ويـــبكيك مـــربع
وتحـــت الدوالـــي الـــباكيات ســـتلتقي
وفـــودٌ عـــلى عهـــد الهـــوى تـــتوجع
وداعـــاً وداعـــاً يـــا أبـــا الجـــود والرضـــى
فـــلا الذكـــر يكفيـــنا ولا الطيـــفُ يشـــفع
وداعـــاً وداعـــاً فالأمـــانيُّ ســـافرتْ
وأخـــلتْ مغانيـــنا وذاب المـــودع
ســـتبقى عـــلى الأجفـــان حـــلماً مجـــنحاً
وفـــي العيـــن فـــي أحداقهـــا تـــتربع
تـــلوح لـــنا مـــن عـــالم الغيـــب ضـــاحكاً
وتشـــرق كالـــبدر المـــنير وتطـــلع

مكـــانك فـــي كـــل القـــلوب مخـــلّدٌ
وطيفـــك بيـــن الهـــدْبِ والهـــدبِ مـــودع
فطـــوبى لمـــن أخـــلى عـــن الأرض موضـــعاً
ليـــلقاه فـــي العـــرش الإلهـــيّ موضـــع

* * *

"ابـــا الجـــود" أحـــباب القـــلوب توافـــدوا
وهـــذي جمـــوعِ الأهـــلِ جـــاءت تشـــيع
فقـــم مثـــلما عَـــودْتَ ضـــيفاً وزائـــراً
تـــرحّبُ مســـروراً وبـــابُك مشـــرع
محـــبوك مـــازالوا عـــلى العهـــد والهـــوى
أميـــنين. فانظـــرْ كيـــف تمـــتدُّ أذرع
إلى الله تدعـــو بالـــنعيم لمؤمـــن
وتطـــلب غفـــرانَ الـــرحيم وتضـــرع
بكـــوا عصـــرَك الميمـــونَ آهـــاً وحســـرةً
طويـــلاً. وهـــا هـــم حـــول قـــبرك خشّـــع

* * *

"ابـــا الجـــود" يـــا مَـــنْ غـــبت كـــالطيف مسـرعاً
عـــن العيـــن واحـــتار الفـــؤادُ المُقطّـــع
غرائـــرُ مـــن نعـــمى ليـــاليك غـــادرتْ
وأكـــبادُنا العطشـــى إلى الحـــبِّ تتـــبع
ســـنبكيك مـــا حـــنّتْ يمـــام لعشـــها
وتـــزكي أســـانا كـــلِّ ورقـــاءَ تســـجع
ســـنبكي إذا طـــاف الخيـــال وحومـــت
حشـــودٌ مـــن الذكـــرى تُســـرُّ وتُفـــزع
وندعـــو لعـــلَّ الله يـــرحم شـــوقَنا
إليـــك وفـــي رضـــوانه نـــتجمع

(١) الحمى: مسقط رأس الراحل

٢٠٠٢/١/٢٥

قراءة في كتاب:

وجوه ومرايا للباحث ميخائيل عيد

بقلم:
أحمد سعيد هواش

ميخائيل عيد شاعر ومترجم وأديب أغنى المكتبة العربية بأكثر من سبعين كتاباً من شعر وزجل وترجمة ونقد أدبي.. حيث نقل روائع الأدب البلغاري إلى الأدب العربي بأسلوب جميل ولغة أخاذة، ليتذوقه عشاق الأدب المتعطشين إلى آداب الأمم الأخرى..

أما في كتابه: وجوه ومرايا، فقد أتى على ذكر كوكبة من الأعلام الأدبية حيث ألقى مزيداً من الضوء على سيرتهم الذاتية وإبداعاتهم الفكرية الثرة في الفلسفة، والنثر والشعر والنقد، وأدب الأطفال أمثال: أحمد فارس الشدياق وفيلسوف الفريكة أمين الريحاني.. وشاعر القطرين خليل مطران، والناقد مارون عبون، والباحث لويس عوض، والأديب نسيب الاختيار، والأديب عبد الله عبد الذي ترك بصماته في الأدب القصصي للأطفال.. وقد أطلق على هذا الحيز من الكتاب: وجوه .

أما الحيز الثاني من الكتاب فهو: مرايا: حيث ألقى الأديب ميخائيل عيد "شيئاً من الضوء على أعمال زملاء وأصدقاء وغرباء وكانت لي "وجهة نظر" في ما قرأت من أعمالهم" كما يقول في مدخل الكتاب..

وفي الواقع أن ما أورده الباحث ميخائيل عيد في كتابه: وجوه ومرايا مفيد لنا كقراء وطلاب وباحثينَ حيث أن مناهجنا التعليمية في مراحل الدراسة المختلفة لا تزيد عن إعطاء فكرة مبسترة عن هؤلاء الأعلام الذين يستحقون أن يأخذوا حقهم من معرفة سيرتهم الذاتية وعطاءاتهم الفكرية الغنية..

ويأتي في طليعتهم، الرحالة الاديب أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤- ١٨٨٧م)

يقول الأديب ميخائيل عيد مظهراً مكانة الرائد أحمد فارس الشدياق:

"فماذا يمكن أن نقول في فارس الشدياق، الذي صار إلى الشيخ أحمد فارس الشدياق؟ وأي الجوانب نتناول من جوانب سيرة حياة هذا الرائد العظيم من رواد نهضتنا الحديثة؟

أتتكلم على الفتى الذي هرب من جور الإقطاع والأكليروس فصار قصره ملاذاً للآئذين به من بني قومه العرب؟ أم على ذلك البائع المتجول بين القرى وراء حمار قميء ثم صار ينزل معززاً مكرماً في قصور الإستانة ويستقبل كبار الشخصيات من رجال السياسة والثقافة؟ أم أتكلم على انتمائه العربي الراسخ الذي لم يحرفه عنه قيد شعرة حمله الجنسية البريطانية التي احتمى بها بين طغيان الطغاة وجور الجائرين، ولا المراتب التي نالها في الاستانة؟

وعن عروبة الرائد الرحالة أحمد فارس الشدياق يقول الأديب ميخائيل عيد:

"لقد حمل الشخصية البريطانية، ولكنه رفض أن يستبدل الزي العربي حتى وهو في لندن، وباريس، وظل عربي الفكر والقلب واللسان في الاستانة..

لقد تنقل من مكان إلى مكان ولكن هواه لم ينتقل.. لقد حفظه نقياً لوجه العروبة وكان أحد أكبر المسهمين في خدمة لغة العرب عبر تاريخ العرب..

وعن إسهام الشدياق في لغة العرب ينقل مؤلف الكتاب الباحث ميخائيل عيد أقوال الأديب الناقد "مارون عبود" في أدب فارس الشدياق حيث يقول:

"ليس في القرن التاسع عشر أدب حي، كما نفهم الأدب اليوم، إلاّ ما كتبه الشدياق في "فارياقه" و "واسطته" و "كشف مخباه وفصوله التي أذاعها في جوانبه"

وأما حبه للغة العربية فيقول الباحث ميخائيل عيد:

"إن حبه للغة العربية جعله يقحمها في كل ما كتب، ويستطرد إليها استطرادات جاحظية تخرجه عن الموضوع حتى وهو يكتب سيرة حياته الرائعة الساق على الساق فيما هو الفارياق.. وحتى وهو يكتب المقالات السياسية والاجتماعية والتعليقات في "الجوانب" .

ثم يستطرد صاحب الكتاب مورداً مواهب البحاثة الرائد الشدياق فيقول:

"ولم يكن الشدياق لغوياً بارعاً متبحراً وأديباً مبدعاً وحسب بل كان أيضاً شاعراً ومترجماً وناقداً وكاتباً اجتماعياً ورحالة وصحفياً يكتب في السياسة وغيرها.. وكان كبيراً في أكثر ما كتب" .

ثم يعدد المؤلف ميخائيل عيد مؤلفات البحاثة الرحالة أحمد فارس الشدياق حيث بلغت خمسة عشر كتاباً.

ثم يلقى الأديب ميخائيل عيد نظرة شاملة على سيرة فيلسوف الفريكة (أمين الريحاني) مستشهداً بقول المستشرق الروسي (كراتشكوفسكي) بالريحاني حيث يقول:

"الريحاني هو أكبر كاتب عربي في هذا الزمان" ثم يقول صاحب الكتاب: "كانت أمه تخوفه صغيراً بالقول "جاء البدوي" ثم صار بين أكبر دعاة الوحدة العربية وأكثرهم إيماناً بها وحماسة لها.. ولقد أحب إباء البدو ووصف حياتهم وصفاً دقيقاً جميلاً" . ثم يظهر الأديب عيد حب فيلسوف الفريكة للأمة العربية ولغتها فيقول:

"أتقن الإنكليزية وقرأ بها أمجاد أمته وبعض رجالاتها فأحس بالغربة وقسوتها فعاد إلى لبنان ودرس العربية حتى أتقنها. ووجد نفسه إذ وجد لغته".

ثم أطلق مكافحاً في سبيل نهضة العرب وتحررهم ووحدتهم، ولم تفقدهم الحماسة الاتزان، فقد عالج أكثر المشكلات الاجتماعية والسياسية في زمنه معالجة المفكر الرصين وكسا أفكاره ثوب الأدب الجميل.

ثم يورد صاحب الكتاب نبذة عن حياة الريحاني مستشهداً بقول الريحاني:

"وادي الفريكة مهيب أكثر منه جميل، عميق ملتوٍ ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه في نهر الكلب. هو صغير ولكنه كثير الزوايا والأسرار، يجمع بين الدلب الذي لا يعيش إلاّ بالقرب من الماء والصنوبر الذي يكتفي بمشاهدة البحر من أعالي الجبال. وفي الشتاء تنثر الطبيعة تحت قدميه أزاهر الدفلي وتكلل رأسه في الربيع والصيف بأزاهر الوزال. ومع هذا الجلال والدلال تراه حاملاً على منكبيه كثيراً من الأطواد التي تخضع صاغرة تحت قدمي حنين" .

لذلك سمي الريحاني "فيلسوف الفريكة" .. ولقد رقد هناك إلى الأبد..

وعن زيارات الريحاني للأقطار العربية وما ألف بها من كتب يقول صاحب الكتاب الأديب ميخائيل عيد:

زار الحجاز واليمن وعسير ولحج والمحميات والعراق والبحرين، ثم عاد إلى الحجاز فالكويت ومن ثم زار العراق ثانية. وتواترت رحلاته بين الشرق والغرب، وكانت ثمراتها العديد من الكتب ومنها "ملوك العرب" و "النكبات . و "الجزءان الثالث والرابع من الريحانيات" .

وكان كتابه الصغير "أنتم الشعراء" صرخة احتجاج على الأدب الباكي الذليل.. وكانت له أصداء كثيرة، وكانت الردود عليه، وعن خدمة الريحاني للقضية الفلسطينية ودفاعه عن قضيتها العادلة يقول المؤلف: "وحين احتدم الجدل بشأن القضية الفلسطينية عام ١٩٣٧ م كان الريحاني بين الذين جندوا كل قواهم، ومواهبهم لخدمة هذه القضية العادلة. لقد عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية وألقى الكثير من المحاضرات مستخدماً قوة الحق والمنطق إضافة إلى قوة البيان. وأقنعت حججه الدافعة الكثيرين من "ساسة الغرب أنفسهم" .

ويستشهد الباحث ميخائيل عيد في كلامه عن شاعر القطرين خليل مطران (١٨٧٢- ١٩٤٩) برأي الشاعر اللبناني الياس أبو شبكة حيث يقول عن خليل مطران:

"الأستاذ خليل مطران سيد شعراء العرب في مختلف أقطارهم، وباني أول صرح جديد في الشعر العربي، وأعرف الأدباء جميعاً بمداخل اللغة ومخارجها.." .

ويقول صاحب الكتاب الأديب ميخائيل عيد مظهراً مكانة شاعر القطرين (خليل مطران) : "كان خليل مطران إنساناً كبيراً في زمن كثر فيه الظلم والجهل والتخلف فصار ثائراً وفي الشعر مجدداً. كان الغدير العذب الذي روى حدائق الشعر العربي المعاصر" ثم يستشهد بقول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين: حيث يخاطبه قائلاً: "فأنت علمت المقلدين كيف يرتقون بتقليدهم عن إفناء النفس فيمن يقلدون وأنت علمت المجددين كيف ينزهون أنفسهم عن الغلو الذي يجعل تجددهم عبثاً وابتكارهم هباء. وأنت علمت أولئك وهؤلاء أن الفن حر لا يعرف الرق، كريم لا يحب الذل، نشيط لا يحب الجمود، أبيّ لا ينقاد للمحافظة إلى غير حد، ولا ينقاد للتجديد في غير احتياط".

وفي مدخل بعلبك يقفُ تمثال خليل مطران شامخاً، حيث كان مولده في بعلبك في شهر تموز عام ١٨٧٢م ودرس الكلية الشرقية في زحلة ، وفي واديها حيث أولى نسمات الحب على قلبه:

هل تذكرين ونحن طفلان
عهداً بزحلة ذكره غنم
إذ يلتقي في الكرم ظلان
يتضاحكان ويأنَسُ الكرم

ثم يذكر الأديب ميخائيل عيد مراحل حياة هذا الشاعر وأسفاره إلى باريس، ومصر ودوره في الحركة الأدبية في مصر.. وقد لقي خليل مطران الكثير من التكريم في حياته التي انطفأت شعلتها في أول تموز عام ١٩٤٩ م.

وعن شعر خليل مطران يقول الباحث ميخائيل عيد: "في شعر خليل مطران قوة عجيبة وفيه سلاسة وعذوبة مدهشتان. أجل، من القوة والجزلة ومتانة الأسلوب ومن الرقة المتناهية والعذوبة الفائقة يرسم خليل مطران لوحات شعرية قل نظيرها في شعرنا العربي ويقيم أسساً راسخة لشعر ملحمي متين ويكتب قصصاً فيها القصة الجيدة وفيها الشعر الرائع"

لنسمع قليلاً من شعره الرائع ها هو يخاطب المستعمرين الظالمين:

شردوا أخيارها بحراً وبراً
واقتلوا أحرارها حراً فحرا
إنما الصالح يبقى صالحاً
آخر الدهر ويبقى الشر شرا

أجل يبقى الصالح صالحاً ويبقى الشر شراً..

وعن الأديب نسيب الاختيار (١٩١٠-١٩٧٢) يحدثنا صاحب الكتاب عن سيرة هذا الصحفي والقصصي الذي لا نعرف عنه إلاّ القليل فيقول نقلاً عن معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين "لعبد القادر عياش الصادر عن دار الفكر بدمشق عام ١٩٧٤م ":

"نسيب الاختيار بن مراد، ولد في دمشق عام ١٩١٠ م تخرج من معهد اللاييك

بدمشق. بدأ حياته أستاذاً للأدب العربي في إنطاكية، فصلته السلطات الفرنسية بسبب نشاطه الوطني، مارس الصحافة وقرض الشعر وعمل محرراً ومترجماً في عدة صحف. من رواد القصة القصيرة في سورية بين الحربين. صدرت قصته الأولى في عام ١٩٣٠ م بعنوان "عودة المسيح" . وظف في الإذاعة السورية، يشرف على قسم النثر فيها، تسلم رئاسة دائرة الأخبار، وعمل مديراً للبرامج الإذاعية، وكانت له زاوية سياسية" .

ويستغرب مؤلف الكتاب مندهشاً أن تكون حياة هذا الأديب "نسيب الاختيار" مجهولة إلى هذا الحد وهو حديث العهد بالرحيل عند دنيانا فيقول: "اكل هذا ينسى في أقل من عشرين سنة؟ وما الذي سيبقى إذاً من نتاج المبدعين من أبناء جيلنا بعد عشرين قرناً؟ ثم يجد المؤلف في مكتبته عن كتاب فيجد روايته الوحيدة "سقوك الفرنك" الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٤م ..

ويختتم الأديب ميخائيل عيد الحيز الأول من كتابه (وجوه ومرايا) في حديثه عن الكاتب فيقول.. تعود بي الذاكرة إلى أواسط الخمسينات من هذا القرن.. كنت في أول الدرب إلى عالم القراءة الجادة.. وكانت أولى محاولاتي الكتابة.. ونشرت قصة عبد الله عبد "مات البنفسج" في إحدى المجلات الثقافية. كان نشرها حدثاً أدبياً احتفى به الأدباء الوطنيون والتقدميون خير احتفاء، وهللوا لميلاد هذا النجم الساطع في سماء الأدب" .

"لقد عاش فقيراً ومات فقيراً وأورث أسرته الفقر الذي لا تزال تعاني منه حتى اليوم، ولكنه أعطى الأدب ثروة كبيرة وصار أدبه موقداً للدفء الروحي في هذا العالم البارد..

ثم يحدثنا صاحب الكتاب الأديب ميخائيل عيد عن كتابي القاص الأديب عبد الله عبد وهما خاصان بالأطفال : الأول وعنوانه "الطيران الأول" والكتاب الثاني من سلسلة كتاب "مساحة الشهري" التي تصدرها وزارة الثقافة في دمشق وعنوانه: "الأطفال ينتظرون الفرح" وقد صدر عام ١٩٨١ م ، أما الكتاب الأول فقد صدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٧٧ م ، وقد تكلّم صاحب الكتاب عن الكتابين بأسلوبه الجميل .

أما الحيز الثاني من كتاب الباحث ميخائيل عيد (مرايا) ، فهو مسعى إلى إلقاء شيء من الضوء على أعمال زملاء وأصدقاء وغرباء كانت لي "وجهة نظر" في ما قرأت من أعمالهم كما يقول. .

وقد ألقى الباحث عيد نظرة ثاقبة على عشرين موضوعاً من قراءات لكتب، وموضوعات فكرية.. مبتدئاً ذلك بـ "سليمان البستاني والياذة هوميروس- إشارة إلى المقدمة) .. فيقول: حين تذكر إلياذة هوميروس يرد إلى الذهن أسم سليمان البستاني، وحين يذكر اسمه يرد اسم الإلياذة فمن هو سليمان البستاني وما هو سر هذا الارتباط ما بين اسمه والإلياذة؟

جاء في المنجد سليمان البستاني (١٨٥٦- ١٩٢٥م) رجل دولة، عالم، أديب وشاعر، ولد في بكشتين (لبنان) كان وزيراً في الاستانة، نال شهرة واسعة بتعريبه إلياذة هوميروس وبالمقدمة التي وضعها عليها فكانت نموذجاً للدراسة الأدبية ومقارنة الآداب.

ويقول مارون عبود في كتابه "رواد النهضة الحديثة" "أما سليمان البستاني ففاق من تقدموه من الرواد، فعرف خمسة عشر لساناً حتى لغة "النور" إن صدق من ترجموا له.. ويقول أيضاً: مضى سليمان عشرات السنوات في دراسة الإلياذة، وتعلم جميع اللغات التي توطئها له، وظل دائباً يرحل ويقيم حتى رأى بعينيه أخيراً مواطن حدوثها فأفاد منها ما كان قد فاته.

وأخيراً انبرى لها، ونظمها، وشرح لنا غوامضها، وكأنه رآها لا تكون تامة بلا مقدمة فقدم لها بمئتي صفحة فجاءت تلك المقدمة كتاباً أشبه بمقدمة ابن خلدون لتعدد أغراضها ودقة بحثها.

وبعد أن يستعرض فصول الإلياذة النفيسة بالكنوز الأدبية يتكلم الباحث ميخائيل عيد فيقول: ونصل إلى الخاتمة ولقد قيل ختامها مسك، ونحن هنا عند مسك المسك.. فمقدمة الإلياذة كنز حقيقي من العلم والفن والأدب والطيب الفاخر فما بالك بختامها الذي هو مسكها.. إنها نشيد ختام رائع لملحمة نثرية علمية أدبية رائعة كتبها سليمان البستاني وأطلق عليها اسم (مقدمة) فهنا كلام، وأي كلام على الشعر والموهبة وسمات اللغة العربية وغنى الشعر وسماته، وهنا مقارنة بين العربية واليونانية وسمات كل منها.

وفي موضوع آخر تطرق الباحث عيد إلى موضوع العصر (الحداثة) حيث يعثر على كتاب جديد هو (الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر) فيقول:

ليس الموضوع جديداً، ولكن الكتاب الذي يحمل هذا العنوان هو الجديد، وإنها لشجاعة أن تأتي بدلوك إلى بئر كثر الواردون إليها، وأن تسعى إلى أن تقول جديداً في موضوع كثر دارسوه، ويتابع صاحب الكتاب الباحث ميخائيل عيد قائلاً: كانت هذه الفكرة تراودني وأنا أقلب صفحات الكتاب الذي صدر عن مطبعة الجمهورية للدكتور خليل الموسى ولكنني لم ألبث طويلاً حتى أبعدتُ كل التخوفات والأسئلة.. وكانت الرحلة مع الكتاب جميلة ومفيدة. والدكتور خليل الموسى باحث مجتهد يكتب في موضوع تخصص له.. وقد عالج الكثير من موضوعات الحداثة في مقالات وأبحاث نشرت في الصحف والدوريات، وكان جاداً في معالجاته..

وقد جاء كتاب الدكتور خليل الموسى في مقدمة وثلاثة فصول.. نقتطف من الفصل الثاني ما يلي: حيث يقول الأديب ميخائيل عيد:

"يقف الباحث طويلاً عند الموت الشخصي في شعر السياب، فنقرأ مأساة الشاعر وندخل إلى جحيم حزنه ونتمنى لو نستطيع أن نفعل شيئاً، ولكننا نصدم بجدار المستحيل ونبقى أسرى رنات الحزن وأسرى أصداء النهضة والحنين.. ويتكلم الدكتور

موسى على موت الفداء عند الشعراء التموزيين بإيجاز، فهوذا الموت اتحاد بالألوهة وانتقال من عالم التغيير إلى عالم الثبات، أو هو انتقال من العالم الزمني إلى العالم اللازمني ويتمثل في الإستشهاد، فالعاشق إذا مات في سبيل قضية كبرى توحد بالفينق أو تموز أبعل أو السيد المسيح ويبقيه هذا التوحيد حياً" .

ثم يتكلم على موت الفداء عند السياب وأدونيس، والبياتي وأمل دنقل ومن ثم يصل إلى الموت الحضاري الذي هو "نقيض لموت الفداء" وهو موت الأمة التي لا تجد من يفتديها من أبنائها..

وبعد أن يستعرض الباحث عيد فصول الكتاب (الحداثة في حركة الشعر لعربي المعاصر) يختتم بقوله: بلى ، إن المرء ليكتشف جوانب ملونة في كيانه حين يقرأ كتاباً جيداً فالكتاب الجيد يساعدنا على اكتشاف الآخر وعلى اكتشاف الذات أيضاً.

ومن ينسى الشاعر الراحل محمد مهدي الجواهري بقامته المديدة جسماً وشعراً، وكانت آخر إنجازاته الأدبية (الجمهرة.. مختارات من الشعر العربي) حيث لم يمهله القدر لإنجازها كاملة فوصل بها إلى نهاية العصر الأموي.. عند هذا العمل الرائع يحدثنا الباحث ميخائيل عيد عن (الجمهرة وعجور الأزمنة الغابرة) فيقول:

".. وإذا كان شاعرنا الكبير الجواهري قد اختار من شعرنا القديم أصفى عينوه فكم يكون عسيراً اختيار الأصفى من الأصفى، ومع ذلك لا مناص! فلنقف قليلاً مع عدي بن زيد العبادي:

بكر العاذلون في وضح الصبح
يقولون لي: ما تستفيق؟
ويلومون فيك ابنة عبد الله
والقلب عندكم موثوق

ونحس الغصة.. فنطوي صفحات ونقف عند شكوى من نوع آخر شكوى من "حبيب معمم لامن" حبيب مقنع.. إن عامر بن جوين الطائي يخاطب صاحبه:

هل في القضية أن إذا استغنيتم
وأمنتم فأنا البعيد الأجنبَ
وإذا الشدائدُ بالشدائد مَرَّةً
أشجتكم فأنا الأحب الأقربُ

نقرأ مدحاً وفخراً، وتسيباً واعتذاراً ووعيداً ونرى الكثير من صور الطعن والضرب.. ففي تاريخنا الكثير من القتل.. ونتجاوز ذلك نبكي مع الباكين ونردد مع النابغة الذبياني:

حسب الخليلين نأي الأرض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بالِ

ثم يكون علينا أن نختار بين شرين: الموت أو الذل، حين يصور لنا عروة بن الورد وجهي الصعلوكين: الذليل والأبي.. ننحاز إلى الآخر الذي:

ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور
مطلاً على أعدائه يزجرونه
بساحتهم زجر المنيح المشهّر

ثم يستعرض الباحث الجزء الثاني من الجمرة فيقف عند شعر الشاعر الفارس أبي محجن الثقفي فيقول: وأبو محجن الثقفي وجه لا ينسى فهو القائل:

كفى حزناً أن تردي الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا

وهو القائل:

إذا متُ فادفني إلى أصل كرمة
تروي عظامي بعد موتي عروقها

وبعض أن يستعرض الباحث ما ورد من أخبار وأشعار المحبين: قيس بن الملوح.. قيس بن ذَريح حيث يقف عند بيت جميل لهذا الشاعر وهو القائل:

تساقط نفسي حين ألقاك أنفساً
يردن فما يصدرن إلاّ صواديا

وبعدها يدخل الباحث مضارب الشاعر أبي صخر الهذلي القائل في ذكر حبيبته:

وإن لتعروني لذكرك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى
وزرتك حتى قيل ليسُ له صبر

ويتابع الباحث عيد مستعذباً شعر الغزل فيقول: ويدهشنا عروة بن أذينة ببساطته وعذوبة شعره فلا تصدق أنه من القدماء:

بيضاء باكرها النعيم فصاغها
بلباقة فأدقها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي
ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال: لعلها معذورة
من أجل رقبتها، فقلت لعلها

وكنت أتمنى على الصديق الأديب ميخائيل عيد أن يوازن هذا الإنجاز الرائع للجواهري بما سبقه من مختارات شعرية قديمة وحديثة.. مثل حماسة أبي تمام، والحماسة الشجرية، وحماسة البحتري، ومختارات البارودي وأدونيس وغيرهم..

فلقد بقي الكثير الكثير مما لم أستطع أن أستعرضه في كتاب (وجوه ومرايا) للأديب والشاعر ميخائيل عيد، وأعترف بأن أي إيجاز أو استعراض لتلك المواضيع التي ذخر بها كتاب صديقنا عيد يفقدها الكثير الكثير من وهجها وحرارتها التي صبها مؤلف الكتاب بأسلوبه الممتع وقلمه الرشيق، وبيانه الأنيق..

إني أوصي باقتناء هذا الكتاب الزاخر بما لذ وطاب من أدب وفن وتاريخ وسيرة ذاتية لأعلام يستحقوا أن يردوا النور حيث كانوا الشعاع الذي بدد الظلمة لوقت ليس ببعيد..

إلى نائمة..!!

خضر الحمصي

هيـــا انهضـــي فالـــنور أشـــرق

فـــي الجفـــون الفاتـــرة

هـــذا ضـــياء الشـــمس حـــطَّ

عـــلى الـــرموش الســـاهرة

قومـــي إلى كـــوخ المحـــبة

والســـنين الغابـــرة

إنـــي أرى عمـــري يمـــر

كمـــا الـــرياح العابـــرة

لا تحجـــبي فـــتن الجمـــال

عـــن العيـــون الـــناظرة

فـــالكون زاهٍ والـــليالي

الســـود أمســـت ناضـــرة

نـــثر الضـــياء شـــعاعه

مـــثل الـــنجوم الزاهـــرة

غســـق الصـــباح معـــرشٌ

فـــوق الشـــفاه الســـاحرة

قومـــي انـــزعي تعـــب القـــلوب

الخضـــر أنـــت القـــادرة

فعسى يدغدغك الهوى
وتفيق فيك الذاكرة

فهنا حديقتنا التي
عشنا بها.. يا ناكرة

هيا اقطفي ورد المنى
فالورد يؤنس زائره

والزهر يعبق بالشذا
والعطر يفتنُ ناظره

لو لم ترشّيه الندى
لبقيتِ أنت الخاسرة

ولكنتِ في الحب المقدس
يا جميلة غادرة

هذي عصافير الصباح
أمام حسنك صاغرة

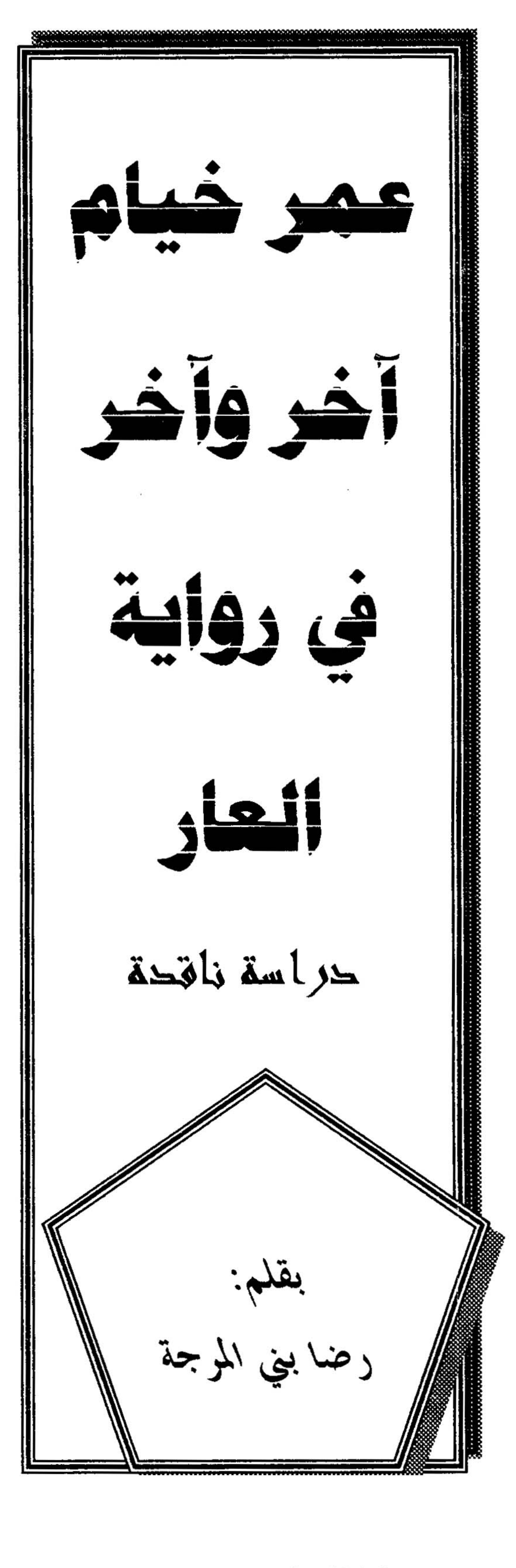
جاءت تُغني الشعر
امست من جمالك شاعرة

عودي إلى روض الهوى
إن كنت حقاً ذاكرة

إني صبرت على النوى
هل أنت مثلي صابرة

لا كان عمري إن ظللت
الدهر عني هاجرة

فالحب يأسر مدنفاً
أضناه عشق الآسرة



أثـــناء زيارتي لمدينة طهران حاضرة البـــلد الصـــديق إيران في خريف عام ١٩٩١ روى لي أحد الأصدقاء الأدباء ما مفاده:

إن ســـيء الذكـــر الروائي المعروف سـلمان رشـــدي الـــذي أصدر الإمام الخميني الـــراحل (قدس الله سره) فتوى تقضي بإهدار دمـــه وخصص جائزة مالية مجزية لذلك نتيجة إصـــداره روايـــته الـــرابعة (آيـــات شيطانية) الزاخرة بالإلحاد والتجديف على القرآن الكريم.

هـــذا الـــروائي الباكستاني الملحد قد أصدر أيضاً رواية قبلها بحوالي خمس سنوات بالإنكـــليزية عـــنوانها: SHAME ومعـــناها (العـــار) يســـيء فيهـــا إساءة بالغة إلى أحد الـــرموز الـــبارزة والأعلام الواردة سيرهم في مجـــلد (مـــن روائـــع الأدب الفارسي) ألا وهو شـــاعر الرباعيات الشهير عمر الخيام. فأكملت حديـــثه: وهو أيضاً النطاسي (الطبيب البارع) والفـــلكي وعـــالم الرياضـــيات ومبدع التقويم الســـنوي الإيراني (هجري - شمسي) الملقب بأبي الفتح.

تـــلك المقولة تركت في نفسي انطباعاً ســـيئاً لـــم يستطع مرور عقد زمني كامل من محي آثاره.

لقد حدث في الآونة الأخيرة أن وقعت فـــي يدي نسخة معربة من نفس رواية (العار) وقـــد قام بترجمتها - مشكوراً - الأديب الكبير الأســـتاذ عبد الكريم ناصيف وقدم لها الأستاذ نصـــر شمالي وصدرت عام ١٩٨٥ بـــ ٢٧٢ صفحة.

قـــرأتها مثنى وثلاث وخرجت بنتيجة مأساوية حقا:

أولاً: لقـــد أدركـــت لماذا نال المؤلف أكثر من أربـــع عشـــرة جائزة أدبية (حسبما ذكر على غـــلاف الـــرواية إلى جـــانب صـــورة كالحة الملامح).

ثانياً: اكتشفت أن المؤلف قد استعان بالأسلوب الأدبـــي: (الفانتازيا) ضمن إطار سياسي يحكي

قصة انفصال الباكستان وبنغلادش عن قارة الهند في ١٤ آب من عام ١٩٤٧ (قبل أن يولد بأشهر قلائل في العاصمة القديمة) "بومباي" ثم انضمت أسرته إلى الباكستان وحينما شب عن الطوق هاجر منها إلى بريطانيا للعيش فيها بعد أن اكتسب جنسيتها.

أجل هذا الأسلوب الأدبي - آنف الذكر - مكنه من التواري خلفه. كي يتعمد الإساءة إلى الطبيب الفارسي عمر الخيام (حيث نفى أن يكون ذو صلة من قريب أو بعيد برباعياته الشعرية متجاهلاً شهرتها الواسعة في عالم الأدب الفارسي والعربي، بل والعالمي أيضاً حيث تم ترجمتها إلى عدة لغات حية أشهرها تلك التي قام بترجمتها الشاعر الإنكليزي: (فيتز جيرالد) غير أن أصح ترجمة للرباعيات وأصدقها وأقربها إلى الأصل الفارسي كانت تلك التي عربها الشاعر العراقي المرحوم (أحمد الصافي النجفي) (١٨٩٧- ١٩٧٧) م ، حسب رأي الشاعر السوري أحمد الجندي، علماً أن أول من عربها هو الأديب اللبناني وديع البستاني، وباعتقادي إنه باستطاعة كل ناقد ذي رأي سديد ومحايد وفكر حصيف وراجح: (أن يكتشف تلك البوادر المسيئة والبادية صراحة في نص روايته المشبوهة تلك) . وللدلالة على ذلك أورد فيما يلي موجزاً لما جاء فيها:

- شاء الراوي أن يفسر لنا منشأ كلمة باكستان حسب مقاطعها فيقول في الصفحة (٨١): من المعروف جيداً أن مصطلح الكلمة المركب من الحروف الأولى لكلمات أخرى مصطلح فكرت به لأول مرة في انكلترا فئة من المثقفين المسلمين بحيث يرمز الحرف باء للبنجابيين والحرف ألف للأفغانيين والحرف ك للكشميرين والحرف س لأهل إقليم السند والمقطع تان لأهل إقليم بلوشستان.

ويلاحظ أنه قد تمخض عن رواية العار شخصيتان تحملان اسماً واحداً هو: عمر الخيام هما أخوان مجهولي الأم والأب يكبر أحدهما الآخر بعشرين سنة، وتفصيل ذلك إنه كان يعيش في بلدة كاف (هي بالحقيقة مدينة كوادار الواقعة على الحدود الأفغانية - حسب موقعها على المصور الجغرافي - رجل أرمل منذ ١٨ عاماً يدعى (شاكيل) أقعده العجز والمرض ضمن قصر منعزلٍ لم يلبث أن توفي على سريره الأثري مخلفاً وراءه ثلاث بنات عانسات (اكتفى الراوي أن يرمز إلى كبيرتهن باسم شوني وللوسطى موني وللصغرى بوني).

تينك العوانس كن يكرهن والدهن نظراً لتزمته الشديد وفرضه القيود القاسية عليهن. والحد من حريتهن طيلة حياته، وحينما توفي تنفسن الصعداء وشعرن أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلهن وأردن أن يحتفلن بهذه المناسبة على طريقتهن الخاصة، وفتحن أبواب القصر على مصراعيها لأول مرة وأقمن حفلة موسيقية صاخبة كان من بين المدعويين إليها لفيف من الضباط الإنجليز المحتلين من حامية الضاحية الأجنبية المسماة (كانتو نمنت) المجاورة لمدينة ك التي يقطنها فقراء المسلمين في غرب الهند (قبل استقلال باكستان وبنغلاديش) .

هؤلاء الضباط تناولوا ما لذ وطاب من الحلويات والفواكة وثملوا من فرط ما تجرعوا من كؤوس الخمرة.

صبيحة اليوم التالي ترددت هناك (في المدينة) شائعة مفادها إن إحدى العوانس الثلاث قد تحولت بفعل فاعل (قد يكون أحد الضباط الإنكليز من فتاة إلى امرأة) وقد تم ذلك بنهاية السهرة الماجنة.

هذه المرأة حملت بجنينها الأول سفاحاً (كما ورد صراحة في الصفحة ١٤ ولم تلبث بعد أشهر معدودة أن وضعت إحداهن طفلاً، وقد أصر المؤلف أن يبقى سر الرحم الذي أتى منه الطفل الوليد سراً دفيناً واكتفى بالقول أن

الأخوات الثلاث أردن أن يُطلق على الطفل عمر الخيام تيمناً باسم الشاعر الفارسي الشهير ولم يخجل الراوي أن ينعته بـ الطفل ابن الحرام في الصفحة رقم ١٨) .

ولزيادة التأكيد إنه إنما يقصد بالإهانة عمر الخيام بالذات الراحل إلى مثواه الأخير منذ ثمانية قرون (ولد عام ٤٣٩- ٥٢٧ هـ) فقد جعل العوانس الثلاث يُطلقن تسمية (نيسابور) على القصر الذي ولد فيه الطفل عمر الخيام وكلنا نعلم أن الشاعر عمر الخيام ولد ودفن في مدينة نيسابور بإقليم خراسان في إيران (تيمناً بالمدينة المذكورة أيضاً حسب ادعائه) كما نوه أنهن رفضن أن يذكرن البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) حين ولادته لكنهن لم يبخلن عليه بالإرضاع بل كان يرضع من الأثداء الستة بالتناوب بمعدل عام كامل من كل واحدة ولمدة ستة سنوات، ولم يرغبن أن يُختن حين بلوغه سن التسع سنوات كما هي العادة.

كما رفضن رفضاً باتاً أن يُحلق شعره الأسود الكثيف حسبما جاء في الصفحة ١٩.

حدث ذلك في أحد سني القرن الرابع عشر الهجري .

تربى الطفل عمر الخيام ضمن جدران قصر (نيسابور) المُغلق في كنف وحدب الأخوات الثلاث وكانت كل منهن تحسبه طفلها المدلل وكانت ترعى شؤونه مربية فارسية تدعى (حشمت بيي) وثلاثة من الخدم أحدهم أبكم.

حينما بلغ سن الثانية عشر كان قد تعلم من كتب جده المتواجدة في مكتبة القصر بعض اللغات الأجنبية كما برع في إجراء جلسات التنويم المغناطيسي التي كان يطبقها على مربيته وباقي خدم القصر وبهذه الواسطة استطاع أن يكشف الكثير من أسرارهم الخاصة.

وغالباً ما كان يلحظ نظرة غريبة في الأعين الست لأمهاته الثلاث نظرة بدت وكأنها تقول: "هيا أسرع نحن بانتظار قصائدك" لكن ما من رباعية سجلها قلمه (ورد ذلك في الصفحة ٢٧) .

اكتفى المؤلف بوصف عمر الخيام في سياق الرواية أن طبيب أخصائي في مناعة الجسم البشري فقط. ولا يجيد سوى تناول الخمرة ومغازلة الفتيات.

غادر الطفل عمر الخيام ذو الأثنى عشر ربيعاً القصر حيث انتسب إلى مدرسة ابتدائية أجنبية مختلطة، حيث تعرف على زميلته التي تكبره بعامين واسمها: فرح ابنة الضابط الجمركي على الحدود الأفغانية (زهر عشتار) وحاول التقرب منها ونظراً لبدانته المفرطة فضلت عليه الأستاذ الإنكليزي الذي غرر بها ثم اضطر للزواج منها رغم كونه بعمر والدها ثم غادرا المدينة معاً، وبعد أن هجرها عادت لوحدها تجر أذيال خيبتها وعارها، بينما كان الشاب عمر قد أنهى دراسته وغادر إلى مدينة كراتشي (العاصمة القديمة لباكستان) حيث التحق بجامعتها تلبيةً لمنحة حكومية لدراسة الطب البشري.

حين بلغ عمر الخيام العشرين من عمره وردته رسالة من أمهاته الثلاث تفيد أنهن قد أنجبن طفلاً آخر أطلقن عليه أيضاً اسم (عمر الخيام) لكي لا يخلى القصر من ترداد النداء باسمه الحبيب دون أن ينوهن ويحددن من يكون أباه وأمه.

ولقد جاء في الصفحة ٧٥ ما يلي:

كان عمر الخيام الأول في الثلاثين من عمره ذو سمعة سيئة ككائن بشري منحط غالباً ما يقال عنه على ما يبدو أنه خال من الحياء تماماً (شخص لا يعرف كلمة حياء) .

وفي الصفحة ٩١ لا ينسى المؤلف أن ينعت عمر الخيام بذلك النكرة الذي لا أحد يعلم أصله وفصله.

كما جاء في الصفحة ٩٨ عبارة القدح والذم التالية:

بينما كان اسكندر حربا (رئيس وزراء باكستان) يتفق مع برميل الشحوم الخنزيرية المدعو: عمر الخيام على شؤون الفسق وما شابه.

ما في الصفحة ١٠٥ فقد بلغت الوقاحة المتناهية أوجها لدى سيء الذكر سلمان رشدي إذ سمح لقلمه المشؤوم بالتجديف على الله جل وعلا بشكل نكتة ضمنها روايته المفعمة بالزندقة حينما قال : على لسان أحد الباكستانيين : أن الله نزل إلى أرض الباكستان ليرى كيف تجري الأمور هناك (بعد منحها الأستقلال من قبل حكومة التاج البريطاني) فسأل الجنرال أيوب خان:

لماذا البلاد في تلك الحالة من الفوضى؟ فأجابه الجنرال هم أولئك المدنيون الفاسدون الذين لا يصلحون لشيء يا سيدي، فقط خلصني منهم ودع البقية لي!!

وأخيراً في الصفحة ٢٧١ بعد أن جعل المؤلف سلمان رشدي الطبيب عمر الخيام يُقتل على يد زوجته (صفية زنوبيا) ابنة رئيس جمهورية الباكستان السابق واسمه رضا حيدر، وكانت تتقمص اهاب الوحش الدموي وشكله بينما كان يقف أمامها عاجزاً عن الحركة امتدت يداها يدا زوجته (مخالبها) ثم أطبقتا على عنقه ، جسمه يتداعى، يسقط بجوارها، فتنهل من دمه وقد غدا بلا رأس وينسى الراوي أو يتناسى أنه قد سبق له أن أمات بطل روايته عمر الخيام في الصفحة السابقة ذات الرقم ٢٦٩ بقوله: قال تلفار الحق (محقق الشرطة) (وهو بنفس الوقت عديله) : عليك اللعنة ثم رأ ع مسدسه وأطلق النار على عمر الخيام في قلبه تماماً.

الآن أعتقد ن سلمان رشدي قد شفى غليله من شخصية عمر الخيام الحقيقية حينما قتله في خياله المشوش مرتين متواليتين وهو في سن الـ ٦٥ سنة بينما عمر الخيام عاش في الحقيقة ٨٨ سنة أو ٨٣ سنة على الأقل. حتى وإن كان يناقض نفسه في سبك ختام روايته المغرضة تلك ويبدو أنه لا يأبه كثيراً لنقد القراء الواعين طالما أن الدول الغربية تُغدق عليه الجوائز وتناصره على السراء والضراء وتستخدمه كمخلب قط لمهاجمة الإسلام والمسلمين في شتى أرجاء الأرض عن طريق وسائل الأعلام المكتوبة بقالب مجلبب بالثقافة المشبوهة والمغرضة بآنٍ معاً.

هكذا شاء سيء الذكر سلمان رشدي أن يوجه سهامه المسمومة نتيجة حقده الدفين إلى هذه الشخصية الفارسية الفذة وزراً وبهتاناً.

ثم ألم يكن أحد شروط الولايات المتحدة الأميركية المتواجد فيها الآن إلغاء الفتوى القاضية بهدر دمه كي تعيد العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية؟

مصادر البحث والتوثيق :

١- رواية العار لسلمان رشدي (مترجمة)
٢- كتاب رباعيات الخيام لأحمد صافي النجفي.
٣- كتاب المفترى عليه عمر الخيام للدكتور رمله محمود غانم.
٤- كتاب رباعيات عمر الخيام بالعربية لهاني الخير.
٥- كتاب رباعيات عمر الخيام ترجمة عن الفارسية . الشاعر مصطفى وهبي التل الملقب بـ (عرار) "أردني" .

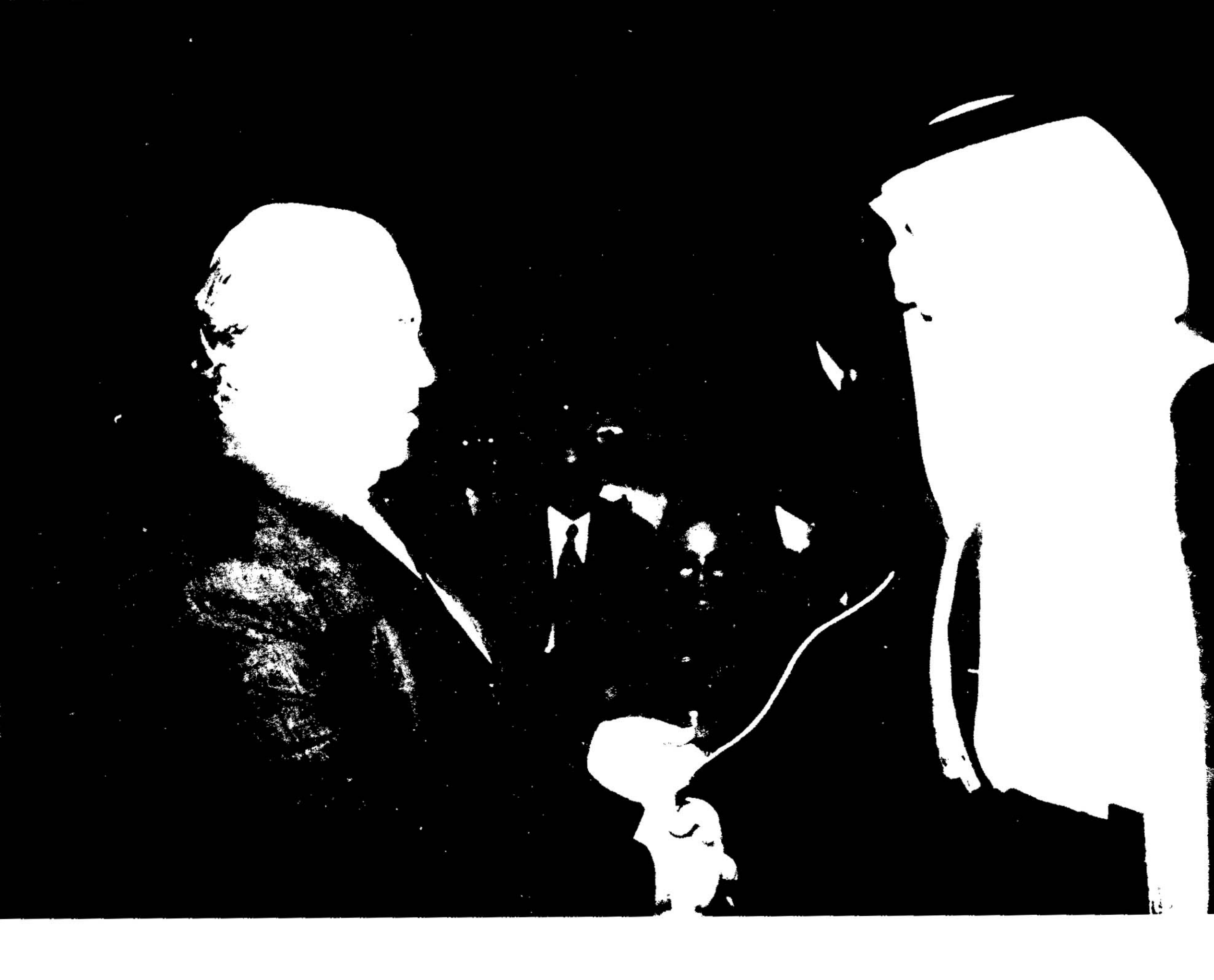
في حفل تكريم سمو الأمير عبد الله الفيصل

اختتمت "دار سعاد الصباح" احتفاءها بالشاعر الأمير عبد الله الفيصل في حفل تكريمي أقيم بالقاعة الكبرى في فندق سميراميس بالقاهرة مساء يوم الأربعاء الماضي.

"جئت لأحيي جميع الذين تحملوا العناء للحضور وللمشاركة في هذا الاحتفال التكريمي الذي أسميه "مهرجان الوفاء". وفاء سعاد الصباح للثقافة ولكبار المبدعين وهي بادرة أطلقتها منذ عوام وثابرت على نهجها لتضيف بذلك إلى دورها الكبير في مسيرة الثقافة العربية"

بهذه الكلمات خاطب الدكتور فاروق حسني، وزير الثقافة المصري جمهور المدعوين إلى الحفل، بعد كلمات الأمير محمد عبد الله الفيصل الذي قرأ رسالة والده المكرم والتي تشيد بمبادرة الدكتورة الصباح وما تعنيه له ولجميع المثقفين العرب مكرراً شكره لها على ما قدمته للاحتفاء به.

كان الحفل بدأ بتلاوة مباركة من القرآن الكريم ثم كلمة الشيخ مبارك عبد الله مبارك الصباح نيابة عن والدته الدكتورة سعاد الصباح والذي قال:



السيد خالد القطمة، المدير العام لدار سعاد الصباح
يرحب بالأمير خالد الفيصل

معالي وزير الثقافة الأستاذ الدكتور فاروق حسني
أصحاب السمو والمعالي/ الأمراء والسفراء
سيداتي سادتي

أريد أولاً أن أعبر عن عميق الشكر والامتنان لحضوركم هذا الحفل الذي تقيمه دار سعاد الصباح تكريماً لصاحب السمو الملكي الأمير الشاعر عبد الله الفيصل.

ويشرفني أن أقف بينكم حاملاً رسالة الوالدة الجليلة الدكتورة سعاد محمد الصباح والتي كلفتني مشكورة بحضور هذا الملتقى الثقافي الكبير وإلقاء كلمتها التالية نيابة عنها..

معالي وزير الثقافة الأستاذ الدكتور فاروق حسني
أصحاب السمو والمعالي الأمراء والسفراء
يا أصدقاء الحرف العربي

في العام ١٩٩٥ شهدت الكويت تظاهرة ثقافية جديدة في وطننا العربي وذلك حين تشرفت بتكريم رائد التنوير العربي في وطني الأستاذ عبد العزيز حسين. بعدها كان من كبير الحظ أن أحمل إلى البحرين الغالية عام ١٩٩٦ رسالة محبة تجسدت في تكريمنا لشاعرها الكبير الأستاذ إبراهيم العريض، أمد الله في عمره وأبقاه، وذلك ضمن مبادرات الوفاء التي نؤسس لقيمها عرفاناً بفضل كبار المبدعين العرب الأحياء.

وفي العام ١٩٩٨ كنا على موعد لتكريم كبير الشعر الأستاذ نزار قباني فصدر كتابنا التكريمي له ولكن القدر حال بقسوته دون هذا الواجب وغاب عنا نزار قباني ليبقى خالداً في عطائه الذي لا يغيب.

العام الماضي كنا على موعد هنا في القاهرة الحبيبة، لتكريم علم مصري في دنيا التأليف والبحث تشهد بفضله المؤسسات الثقافية الراسخة التي أقامها وآثار مصر الخالدة. نعم كان الموعد لتكريم الصديق النبيل الدكتور ثروت عكاشة، وكان احتفالنا لائقاً به وبعطائه ومعبراً عن تقدير ثمين لكل ما أبدعه وأرساه.

وفي هذه السنة كان اختيارنا لصاحب السمو الملكي الأمير الشاعر عبد الله الفيصل، تقديراً لمجمل ما أعطى في عالم الشعر الكلاسيكي والشعبي وفي حقول الإدارة والرياضة والعمل الإنساني.

وقد شهدت مدينة "ابها" في أرض عسير حفل تكريمه، فيما شهدت الرباط أياماً تكريمية أقمناها تحت رعاية صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله.



الأمير خالد الفيصل ، الأمير محمد عبد الله الفيصل
والشيخ مبارك عبد الله المبارك متجهين إلى الحفل

وأننا إذ نقيم هذا التكريم في القاهرة، فلأن في الكحل المصري عيناً أخرى تؤسس لجمال العين ولأن مياه النيل هي عطر الختام الذي أردناه لمجمل فعاليات احتفائنا بالأمير الشاعر إن ما بيننا وبين القاهرة صلة وجود حميمة ودائمة ففي هذا البلد الغالي كانت الدراسة والإقامة مطلع الستينات وفيها أطلقت مشروعي الثقافي الأول بطباعة مجلدات مجلة "الرسالة" المصرية عام ١٩٨٥ . ومن القاهرة انطلقت أولى المسابقات الإبداعية للشباب العربي عام ١٩٨٨ وتستمر حتى يومنا هذا باسم مسابقات الشيخ عبد الله مبارك الصباح ومسابقات سعاد الصباح للإبداع العربي.

وهي المسابقات التي شجعت الآلاف من الشبان العرب على تقديم البحوث والدراسات العلمية والأدبية والفكرية وتحولت إلى مهرجان ثقافي للجيل الجديد.

وقد أسهمت هذه المسابقات في تحريك بحيرة راكدة من المواهب التي أعطت وأبدعت فقمنا بطباعة إبداعها في مئات الكتب، وقدمنا لها ما تستحق من تشجيع.

أما دار سعاد الصباح للنشر فقد ولدت في القاهرة خلال الغزو العراقي البائس لوطننا ومنها انطلقت حاملة رسالة جديدة للنشر ومفهوما يجعل دار النشر مؤسسة ثقافية شاملة، بعض دورها الكبير هذا الحفل الكريم.

معالي الوزير

أيها الكرام

كانت القاهرة هي الحبيبة الغالية في القلب زمن الشباب، وهي اليوم كذلك وغداً ستبقى. أرجو أن تقبلوا عظيم امتناني لتشريفكم حفلنا هذا وعذراً لغياب لا أملك فيه أمراً.

والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

بعدها تحدث الدكتور صلاح فضل والدكتور عبد الله المعطاني عن الحفل ومراميه وعن المحتفية والمحتفى به، ثم حفل غداء.

ومساء يوم الخميس التالي شهد أكثر من ألف وثلاثمائة مدعو يتقدمهم الشيخ مبارك عبد الله مبارك الصباح وضيوفه أصحاب السمو الأمراء وكبار المدعوين الحفل الغنائي الساهر الذي أقيم في دار الأوبرا المصرية والذي أنشدت فيه فرقة الموسيقى العربية الأغاني التي غنتها أم كلثوم وعبد الحليم حافظ من أشعار الأمير عبد الله الفيصل.



على المنصة :

الشيخ مبارك عبد الله المبارك والأمير محمد عبد الله الفيصل